زكي مبارك



مع طه حسين

مع
طه حسين

زكي مبارك

دار المحرر الأدبي

إلى الدكتور طه حسين

أيها الأستاذ الجليل :

تفضلت فأهديت إليّ نسخة من كتابك الجديد (مستقبل الثقافة في مصر) وكان من واجبي أن أشكر لك هذه الهدية بخطاب أسجل فيه هذا التلطف . ولعلني لو حاولت ذلك لاهتديت إلى أن من الخير أن أنتهز الفرصة وأشرب معك كأساً من الشاي في بيتك لنجدد العهد ؛ ولكني آثرت أن أشكر لك هذه الهدية بأسلوب آخر هو الهجوم عليك .

وما كان ذلك حبّاً في المشاغبة كما يتوهم بعض من لا يفقهون ، وإنما كان ذلك لأني أشعر أننا أسرفنا في حب السلام ، والسلام ضرب من الموت ، وأعتقد أننا في هذه الأيام نختلف أقل مما يجب ويا ويلنا إذا لم نختلف!

ويسرني أن أعرف فيما بيني وبين نفسي أني لم أقصّر في محاربتك، ولم يفتني أن أنذر رجال التعليم بخطرك، وقد قلت لهم بصوت يسمع أهل القبور: (إن هذه الرجل سينتزع من أيديكم كل شيء) فما استمع مستمع ولا استجاب مجيب.

وكما قلت للغافلين: إن طه حسين ليس أعلم العلماء، ولا أحكم الحكماء، وإنما هو رجل (متحرك) كما يعبر أهل بغداد، فتحركوا يا جامدين لتسدوا عليه الطريق.

كم قلت: إن من الغفلة أن يسكت رجال التعليم إلى أن يسمعوا صوت الناقوس من طه حسين! وما قلته لرجال التعليم قلت بعضه لنفسي، ففي كتابك الجديد آراء أذعتها من قبلك في الجرائد والمجلات، ولكني لم أحتفل بها كما احتفلت فأذيعها في كتاب خاص، ولو أني فعلت لأضعت عليك فضل السبق. ولكن ما فات فات.

ما كـان يسـرني أن تنتصـر ، وإن كنـت أقسـمت يمـين الوفاء لكلية الآداب ؛ ولكن ماذا أصنع وأنا مضطر لكلمـة الحق في إنصافك بحكم الضمير والواجب؟ ماذا أصنع وأنا أرى أنصـاري في مخاصـمتك لا يملكـون غـير مضـغ الأحاديث؟ ماذا أصنع وأنا لا أدري بين رجال التعليم مـن يبدي رأياً صـحيحاً أو سـخيفاً في مسـتقبل الحيـاة الأدبيـة والعلمية؟

كنت أتمنى أن يشغل بمستقبل الثقافة في مصـر عشـرات من الباحثين مـنهم شـيخ كليـة اللغـة العربيـة وعميـد دار العلوم ورئيس المجمع اللغوي ومدير دار الكتب المصرية ؛ ولكنك تفردت بذلك الإحسـاس الـدقيق الـذي يظهـر في اختيار الظرف المناسب لما تذيع من مذاهب وآراء ؛ فإن بدا لبعض الناس أن يحسدك على هذا السبق فليسأل نفسه ماذا صنع بالإجازات الصيفية ، كما صنعت أنـت بالإجـازات الصيفية .

أتريد الحق يا دكتور؟

أنت رجل مقتحم، وما حق المقتحم أن ينتصر كما انتصرت.

ولكن ماذا في كتابك الجديد؟

هو في جملته وتفصيله شاهد على أنك تقدر المسئولية الملقاة على عاتق عميد كلية الآداب. وأنت في كتابك هذا قد فصلت ما يعترض مصر من المعضلات التعليمية أجمل تفصيل. وليس لكتابك الجديد بريق الكتب الأدبية، ولكن له جلال الكتب التعليمية، فتقبل مني ومن جميع المنصفين أصدق آيات الثناء.

ثم ماذا؟ ـ في كتابك الجديد كثير من البديهيات، فهل ترى من الحق أن نحاسبك على التطويل في شرح البديهيات؟

من الذي حدثك أن المصريين يحتاجون إلى من يدلهم على أنهم في تصورهم وعقليتهم يقتربون من إيطاليا

وفرنسا أكثر مما يقتربون من الصين واليابان؟ من الذي حدثك أن المصريين يحتاجون إلى من يذكرهم بأنهم قوم لهم عقول تدرك ما يدرك الأوربيون في ميادين العلوم والآداب والفنون؟

في كتابك بديهيات كثيرة من هذا النوع، فاستغن عنها إن شئت في الطبعة التالية لئلا تسجل على وطنك جهل البديهيات.

ثم ماذا؟ ـ قلت إن عقلية مصر عقلية يونانية، وصرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية. فاسمح لي أن أشكوك إلى عميد كلية الآداب، فعميد كلية الآداب وهو أستاذي وأستاذك، واسمه طه حسين إن لم تخني الذاكرة، يعرف أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهي مؤمنة بالعقيدة الإسلامية، والأمة التي تقضي ثلاثة عشر قرناً في ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين

عميد كلية الآداب الذي أعرفه أنا، وإن تجاهلته أنت، يعترف بأن الإسلام رجّ الشرق رجّةً أقوى وأعنف من الرجَة التي أثارتها الفلسفة اليونانية.

عميد كلية الآداب يثق بأن في مصر شمائل من العقلية اليونانية التي تلقت الدروس عن مصر الفرعونية. ولكنه مع ذلك يؤمن بأن لمصر عقلية إسلامية، وهذه العقلية الإسلامية لها خصائص يدركها أصغر مدرس في كلية الآداب. وأرجو إلا يضيق صدرك بهذه الحقيقة فقد نلتقي بعد أيام أو أسابيع وأشرح لك ما لا يحتاج إلى شرح، كما تشغل نفسك بشرح ما لا يحتاج إلى شرح.

من المؤكد عندي أنك لم تستشر عميد كلية الآداب قبل أن تصرح بأن الإسلام لم يغير العقلية المصرية، وذنبك في هذا التهاون عظيم لأنك قريب منه، واتصالك به لا يجشمك أي عناء.

عميد كلية الآداب يعرف، كما أعرف أنا وتعرف أنت، أن الديانات تفترق ثم تجتمع، وهي في روحها تحدث الناس بأسلوب واحد في أوقات الضعف، ولكن هذا لا يمنع من أن هناك خصائص للعقلية الإسلامية والعقلية المسيحية، وهذه الخصائص تخفى على العوام ويدركها الخواص.

وكيف لا توجد هذه الخصائص بين دينين مختلفين، مع أننا نعرف أن هناك خصائص عديدة في الدين الواحد حين يختلف أهله بعض الاختلاف؟

إننا نعرف أن للكاثوليكية خصائص وللبروتستانتية خصائص، لأننا نعرف أن للعقلية السنية خصائص وللعقلية الشيعية خصائص.

فكيف جاز عندك يا سيدي الدكتور أن تتوهم أن الإسلام لم يغز العقلية المصرية بتغيير ولا تبديل؟

أنا لا أنكر أن مصر ورثت ما ورثت من علوم اليونـان، ولكني أنكر أن تكون مصر عاشت بعقلية واحدة منذ آلاف السنين إلى اليوم. هل تصدق حقاً يـا دكتـور أن المصـريين أحسوا العقليـة اليونانيـة بعـد الإسـلام إحساسـاً واضـحاً صريحاً؟

في الحـق أن المصـريين في حيـاتهم الإسـلامية شـغلوا أنفسهم بعلوم اليونان أكثر من عشرة قرون، ولكنك وقـد جلسـت علـى حصـير الأزهـر كمـا جلسـتُ تعـرف أن المصريين لم يتذوقوا تلك العلوم؛ والأزهـر لا يـزال باقيـاً فتعال معي نسأل أهله ماذا فقهوا من علوم اليونـان؟ تعـال معي يا دكتور لنقضي بين علماء الأزهر سـاعة أو سـاعتين فستراهم جميعاً يعتقـدون بـأن العقليـة اليونانيـة هـي الـتي قضت على اليونان بأن يكونوا باعة الفاصوليا والسردين!

أنا لا أنكر قيمة التراث الذي خلّفـه اليونـان القـدماء، ولكني أرتاب في أنه وصل إلى ألفاف العقلية المصرية.

وأنت تعرف من نفسك ما أعرفه من نفسي، أنت تعرف أننا لم نفقه الفلسفة اليونانية إلا بعد أن ارتضنا رياضةً عنيفة جداً. فإن ادعيت أنك فقهت فلسفة اليونان وأنت طالب في الأزهر فأنا أقول إني لم أفقه تلك الفلسفة حتى الفقه إلا بعد أن تلقيتها على أساتذة أوربيين في الجامعة المصرية. وما أظنك تتهمني بقلة الذكاء.

والعلوم التي لا تهضم إلا بعد جهد ومشقة لا تغير عقليات الشعوب وإن غيرت عقليات الأفراد.

أنت تعرف فيما تعرف أن الفقه الإسلامي نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض، فكان للشافعي مذهب في مصر ومذهب في العراق. ومعنى ذلك أيها الأستاذ الجليل أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظرف الزمان، وظرف المكان.

والموجة الإسلامية التي طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين، والتي قضت بأن تتفرد مصر

بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد؛ هذه الموجة العاتية لا يمكن أن يقال إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية.

ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية؟ هي لونٌ آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال، وهي لا تُشرح في مقال واحد، وإنما يشرحها كتاب ينفق فيه رجل مثلك عدداً من السنين الطوال.

وأنا مع هذا لا أنكر أن الإسلام في مصر له خصائص غير الخصائص التي يجدها الباحث حين يدرس الإسلام في الحجاز أو في الشام أو في المغرب أو في العراق.

وقد تعرضتُ لشرح بعض هذه الخصائص حين تكلمت عن صور المجتمع الإسلامي في كتب صوفية، ولكنها ما تزال في حاجة إلى درس أوفى من الدرس الذي يقع في فصل من كتاب

أقول هـذا وأنـا أشـعر بـأني لم أزحزحـك تماماً عـن موقفك، ولكني مـوقن بـأني عرضـت صـدرك لشـبهات ستوجب عليك الحذر حين تـتكلم في هـذا الموضـوع مـرة ثانية؛ وأنت تعرف ما أعني ثم ماذا؟ ثم ماذا؟ ثم عرضـت بالتفصيل لمشـكلة اليـوم وهـي: النـزاع بـين الأزهـر ودار العلوم.

ويجب أن يكون مفهوماً أنك ألّفت كتابك لغايـة بريئـة من الهوى لأنك عميد كلية الآداب، وعميد كليـة الآداب يشرع للناس مذاهب الحق. وقد تأملت كلامـك فوجدتـه يحتاج إلى تصحيح.

ولعلك تعرف أن هواي لـيس مـع الأزهـر ولا مـع دار العلوم، وإنما هواي مـع الجامعـة المصـرية، والفـرق بـيني وبينك أني لا أكتم هواي كما تكتم هواك. وما أعارضـك في هذه القضية إلا لأنك سلكت فيها مسلكاً يخالف العقلية

التي صبغتنا بها الجامعة المصرية، وهي التعمق في درس الأغراض والمعاني.

أنت وازنت بين الأزهر ودار العلوم والمعاهد المدنية، وقام عندك الدليل على أفضلية الأزهر، لأنه أخرج للناس: محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى عبد الرزاق؛ وأفضلية المعاهد المدنية لأنها أخرجت للناس: إبراهيم عبد القادر المازني، وأحمد لطفي السيد، ومحمد حسين هيكل؛ وسقطت عندك دار العلوم لأنها لم تخرج أمثال هؤلاء.

صدقت يا دكتور بعض الصدق، فدار العلوم لم يكن لأبنائها ماض في السيطرة على الحياة الأدبية على نحو ما يسيطر: هيكل، والمازني، والعقاد، وطه حسين، والزيات.

ولكن كلامك على صدقه أحزنني، وليتك استشرت عميد كلية الآداب قبل أن تنشر هذا الكلام المحزن الموجع

أحزنني كلامك لأنه أصطبغ بالمغالطة والإسراف.

أنت رجل معلم يا دكتور، ومن العيب عليك أن تؤذي إخوانك المعلمين: أتراك تؤمن في سريرة نفسك بأنك لم تحكم في هذه القضية بغير العدل؟

تعال أناقشك الحساب

إن رجال دار العلوم قد اشتغلوا جميعاً بالتعليم، ومهنة التعليم تقتل الأديب أبشع القتل. وأين المعلم الذي تسمح له وزارة المعارف بأن يستوحي الحياة كما يستوحيها الأدباء الذين سيطروا على هذا الجيل؟

أين المعلم الذي تسمح له وزارة المعارف بأن يصف جمال السابحين والسابحات في شواطئ الإسكندرية وبور سعيد، كما صنع الشاعر فلان؟ أين المعلم الذي يستطيع وصف الصراع بين الهدى والضلال بدون أن يخاطر بمركزه في الحياة التعليمية كما وقع ذلك للدكتور فلان؟

أنت تعرف أني جاهدت أعنف الجهاد لأخلق لنفسي شخصيتين: شخصية المدرس وشخصية الأديب، ومع ذلك لم أسلم من عدوان السفهاء.

ومتى سيطر لطفي على الحياة الأدبية؟

كان ذلك يوم كانت حياته خالية من قيود التعليم، فلما صار مديراً للجامعة المصرية توقّر وتزمت حفظاً لحرمة التعليم.

ومتى سيطر المازني على الحياة الأدبية؟

كان ذلك بعد أن ترك مهنة التدريس وتفرغ لاستيحاء الحياة، ولو بقي المازني معلماً لكان مصيره مثل مصير زميله عبد الرحمن شكري الذي كان يحس مثل لسع العقرب كلما أشار كاتب في جريدة إلى أن له أشعاراً في الغزل والتشبيب.

ومتى سيطر مصطفى عبد الرازق على الحياة الأدبية؟

هل يعرف الجمهور شيئاً من تلك السيطرة؟ وهل يجرؤ مصطفى عبد الرازق على إعلان ما كتب من الوجدانيات؟

إن مصطفى عبد الرازق كتب أجمل ما كتب بإمضاء مستعار لا يعرفه غير الخواص، وكان ذلك لأن حياته في التعليم الديني والمدني قضت بأن ينسحب جهرةً من الحياة الأدبية.

الحق يا دكتور أن رجال دار العلوم لا يطلب منهم إلا أن يكونوا معلمين صالحين، وقد كانوا بالفعل.

وهنا أوجه إليك كلمة مرة ستؤذيك أشد الإيذاء: من الذي زين لك أن تعتدي على الجنود المجهولين؟ أنت تعرف أن الفرنسيين يسمون التعليم.

وما أشقى من يعاني مهنةً بلا مجد!

لك يا دكتور زميل فاضل اسمه إبراهيم مصطفى، وهو كالفراء سيموت وفي نفسه شيءٌ من حتى

فهل يرضيك أن تتجاهل مثل هذا الرجل لأنه لم يسيطر على الحياة الأدبية ولم يشترك في تكوين الجيل الجديد؟

ومن الذي يسمع اليوم باسم أستاذي وأستاذك سيد بن علي المرصفي وله عليّ وعليك فضل لا ينساه إلا الجاحدون؟

أكتب هذا وأنا متألم متوجع لأني أرى عميد كلية الآداب يتجاهل تضحيات المدرسين، ولأني أشعر بأن هذه الأحكام الجائرة ستسقط من ميزان الحسنات أعمالي في التدريس. ولن يعرف الجمهور غير أعمالي في التأليف وهي لم تكن إلا ثمرات ما انتزعت من أوقات الفراغ.

وما أخافه على نفسي أخافه عليك يا دكتور، فأنت هدف لحملات المتعسفين الذين شرعوا يقولون إن إنتاجك الأدبي قلّ وضعف، وهؤلاء الذين لا يذكرونك إلا يوم

تخرج كتاباً جديداً ينسون كل النسيان أن لك شواغل تعليمية تفلّ نشاطك وتقل إنتاجك.

وأين المنصف الذي يذكر أننا نحدث تلاميذنا بأشياء لو دوّنت لخرج منها محصول أدبي نفيس يغمر المكاتب ويشغل الأندية والمعاهد؟ أين المنصف الذي يذكر أن من يسيطرون على الحياة الأدبية مدينون أثقل الدَّين للمدرسين المجهولين الذين لا يعرف التاريخ أقدارهم إلا إن صاروا مؤلفين مشهورين؟

لك يا دكتور زميل فاضل يعيش في زاوية مجهولة من زوايا الخمول هو الدكتور أحمد ضيف، وأنا أؤكد لك أن هذا الرجل يعدي صدور تلاميذه بالفكر والعقل، وقد نفعتني صحبته أجزل النفع، ولكنه لا يستطيع أن يزاحمك لأنه لم يخرج من المؤلفات مثل الذي أخرجت. فمن واجبك وأنت عميد كلية الآداب أن تضع للتقدير الأدبي ميزاناً غير ذلك الميزان، من واجبك أن تذكر أن الجمهور

الفرنسي لا يعرف شيئاً عن المسيو تونلا أو المسيو مورنيه، ولكن أمثال هذين الأستاذين لهم تأثير عظيم في تكوين الأذواق الأدبية وإن جهلهم سواد الناس.

وسيأتي يوم ينعزل فيه الدكتور طه انعزالاً تاماً عن الجمهور ويعتكف فيما يسميه الفرنسيون ليحقق مع تلاميذه بعض الدقائق الأدبية والفلسفية. ويومئذ يحتاج الدكتور طه إلى من يعتذر عنه أمام الجمهور فيقول إنه يحيا حياة العلماء لا حياة الأدباء. وهل يجهل رجل مثلك أن هناك فرقاً عظيماً بين أستاذ الأدب وبين الأديب؟

إن أستاذ الأدب تفسده الشهرة لأنها تشغله عن طول الأنس بالتعرف إلى الألفاظ والمعاني والأساليب. أما الأديب فيفسده الخمول لأنه يصدّه عن درس أسرار النفوس وسرائر القلوب، ويعوقه عن معاقرة صهباء الوجود.

وأنت بحكمك الجائر تنسى أساتذة الأدب ولا تذكر غير الأدباء، لأنهم على حدّ قولك استطاعوا أن يسيطروا على الجيل الجديد. . . أتراني أفلحت في إقناعك بخطأ رأيك؟

قل الحق مرة واحدة يا سعادة العميد!

أترك هذه الخواطر، ثم أرجع إلى محاسبتك بصورة غير تلك الصورة.

أنت قلت إن الأزهر يخرّج فيه محمد عبده وسعد زغلول فهل تعتقد حقاً أن من طبيعة الأزهر أن يخرج رجالاً مثل محمد عبده وسعد زغلول؟

إن كان ذلك صحيحاً فأين الأزهري الذي خلف محمد عبده؟ وأين الأزهري الذي خلف سعد زغلول؟

وما أقول به عن الأزهر أقول به عن المعاهد المدنية، فابحث عن المنطق الذي يزكي حجتك إن استطعت، وما أحسبك تستطيع.

وقد وقفت في كلامك عند الماضي وبعض الحاضر

فهل يحق لي أن أسألك كيف تجاهلت أقدار من أخرجت دار العلوم من الرجال الذين سيطروا على الحياة الأدبية؟

أما يمكن أن يقال إن دار العلوم تخرج فيها عبد العزيز جاويش وحنفي ناصف ومحمد المهدي ومحمد الخضري وعبد المطلب وعبد الوهاب النجار واحمد السكندري؟ أتظن أن هؤلاء لم يسيطروا على الحياة الأدبية حيناً من الزمان؟

وقلت إن دار العلوم لم تغير نحو البصرة والكوفة، فهل غيرت أنت نحو البصرة والكوفة وأنت أستاذ بالجامعة المصرية منذ عشرين سنة؟

أنت رجل مقتحم يا دكتور، وهذا أجمل ما فيك من شمائل وخصال، فامض في اقتحامك إلى غير نهاية، فمصر لا ينجح فيها غير المقتحمين!

مــن حقــك أن تــدوس دار العلــوم لأنــك مقــتحم، وسيكون من واجبي أن أفرحك بانتصارك، لأني متخـرج في الجامعة المصرية وسأقاسمك الغنائم والأسلاب، فـآخر شهادة ظفرت بها من الجامعـة المصـرية مذيلـة بإمضـاءات أحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وطه حسين.

ولكن يعزّ عليّ وعليـك أن تنهـزم دار العلـوم بعـد أن صنعت في التاريخ الحديث ما لم يصنع الأزهر ولا الجامعة المصرية، مع الاعتراف بفضل هاتين الجامعتين العظيمتين

يعزّ عليّ وعليك يـا دكتـور أن ينهـزم معهـد كـان مـن رجاله أساتذتي وأساتذتك. أنت تعرف يا دكتور أن كليـة الآداب انتفعت بأساتذة دار العلوم.

وتعرف يا دكتور أن كلية اللغة العربية انتفعت بأسـاتذة دار العلوم. فأرجوك باسم الأدب العـالي أن تـذكر ذلـك المعهد بكلمة رثاء يوم يموت!

أيها الأستاذ الجليل

في كتابك كثير من مواطن القوة، ولكن يعـوزه المنطـق أنت تتحسر أشد التحسر على الفرصة التي ضـاعت علـى دار العلوم في الانضمام إلى الأسرة الجامعية.

ولكنك نسيت أن سلامة دار العلوم هـي في البعـد عـن تلك الأسرة الجامعية. وأنت نفسك تذكر أنك قلـت غـير مرة إنك لا تفهم أن يكون في الجامعة باب يُغلق بعد ابتـداء الدرس.

فما رأيـك إذا حـدثتك بـأن دار العلـوم معهـد لا يقـل خطراً عن المدرسة الحربية، وأن من الواجب أن يراعى فيـه نظام المواظبة بالثواني لا بالدقائق؟

مـا رأيـك إذا حـدثتك بـأن طلبـة دار العلـوم يجـب أن يُراضوا على الأنظمـة العسـكرية فـلا يعرفـوا مـن الحريـة الشخصـية مـا يعـرف أمثـالهم في كليـة الآداب؟ يجـب أن يكون مفهوماً بيني وبينك أننا لا نفكر في منافعنـا الذاتيـة،

فأنا أدفع ما يتهمك به خصومك من حب السيطرة على أكبر عدد ممكن من المعاهد.

وإذاً يكون من المنفعة الوطنية أن نفكر جميعاً في إعداد معلم اللغة العربية إعداداً فنياً، لا جامعياً، فإن لم تكتف بذلك فلا بأس من أن تقترح أن يظفر مدرس اللغة العربية بدرجة جامعية بعد التخرج في دار العلوم على الأساليب التعليمية.

وتجاريبي في التفتيش أقنعتني بصحة ما أقول، فقد لاحظت أن المدرسين المتخرجين في كلية الآداب يتفوقون في أشياء ويقصرون في أشياء، كما لاحظت أن المتخرجين في دار العلوم يتفوقون في أشياء ويقصرون في أشياء، ولذلك تفصيل يضيق عنه هذا الحديث، فإن أمكن أن يجمع مدرس اللغة العربية بين المزيتين كان لذلك أثر بالغ في تكوين الجيل الجديد وهذا الذي أقول به لا يوجب إلغاء

دار العلوم ولا تغيير نظام كليـة الآداب، وإنمـا يوجـب أن يتعرف هذان الجيلان بعضهم إلى بعض بلا بغي ولا عدوان

ويظهر من كلامك أنك راض كل الرضا عـن الجامعـة المصرية، ولكنك نسيت أن هذه الجامعة لم تصـنع شـيئاً في إصلاح ما سيطرت عليه من المعاهد العالية

هل تعرف يا سعادة العميـد أن لغـة التـدريس في كليـة الطب هي اللغة الإنجليزية؟

وهل تعرف أن لغة التدريس في كلية العلوم هـي اللغـة الإنجليزية؟

لقد نشرتُ أكثر من سبعين مقالة في دعوتكم إلى جعـل اللغة العربية لغـة التـدريس في جميـع المعاهـد العاليـة فلـم تقابلوني بغير الصمت البليغ. وكانت النتيجة أن تسـبقكم الجامعة الأمريكية في بيروت إلى تحقيق هذا الغرض النبيل

وتكلمت يا سـعادة العميـد عـن وجـوب الإكثـار مـن الترجمة، وكان الظن أن تذكر أني اسـتطعت مـرة أن أقنـع

وزارة المعارف بوضع نظام لخريجي البعثات يوجب ألا يظفر المتخرج في البعثات بأية ترقية إلا بعد أن يترجم كتابين من غرر المؤلفات الأجنبية في العلم الذي تخصص فيه . وقد أقرت وزارة المعارف ذلك النظام وأعلنته إلى مبعوثيها في المعاهد الأوربية والأمريكية ، ويقول المرجفون إنك ساعدت على تقويض ذلك النظام بمعونة رجل من أصدقائك تولى وزارة المعارف ، وكان ذلك فيما يقال لأنه نظام اقترحه رجل اسمه زكي مبارك وأقره وزير اسمه حلمي عيسى باشا .

فهل يكون معنى ذلك أن الخير لا يكون خيراً إلا حين تقترحه أنت ويقره وزير من أصدقائك؟

ونسيت يا سعادة العميد أن كلية الآداب تقول أكثر مما تفعل ، فإن لم يكن ذلك صحيحاً فحدثني أين مجلة كلية الآداب التي لم نر منها غير ومضات؟

ونسيت أيضاً أنك تقول أكثر مما تفعل ، فأنت تدعو الدولة إلى إعفاء الأدباء من أعمالهم الرسمية ليتفرغوا للبحث والدرس ، ثم ننظر فنراك تساعد الدولة والدهر على ظلم الأدباء .

فإن لم يكن ذلك صحيحاً فحدثني كيف اتفق ألا تتحدث في الإذاعة اللاسلكية ولا تكتب في الجرائد إلا عن مؤلفات من تصطفيهم من الباحثين ، مع أنك مسئول بحكم منصبك العالي عن الخلوص من شوائب الأهواء؟

كان الظن أن تذكر أن من واجب الجامعة المصرية أن تحاسب نفسها قبل أن تحاسب الناس ، ولكنك على كل حال مغفور الذنوب لأنك تتكلم في أوقات يراها غيرك أوقات صمت وجمود .

أما بعد فإني أعتقد أني نوهت بكتابك وبأعمالك أعظم تنويه ، فإن رأيت في كلامي بعض ما لا يروقك فاعذرني ، فقد أُخذ علينا العهد ألا نقول غير الحق . وهل

علمتنا الجامعة المصرية أن نصانع من يظنون أنهم يملكون من السيطرة الأدبية أكثر مما نملك؟ سترى كيف نروضك على الاقتناع بأن القول المعسول لا يغني عن الصُّنع الجميل

في منزل الدكتور طه حسين

في مطلع الصيف كنت على موعد مـع الأسـتاذ الكـبير الدكتور طه بك حسين لأقدم إليه نسخة من كتـاب (ليلـى المريضـة في العـراق) ولأقـرأ معـه صـفحات مـن ذلـك الكتاب، ولكني حين وصلت في الموعد المحدّد لم أجده في البيت، فسلمت الكتاب لجنديْ يرابط هناك وانصرفت.

ولم يعزّني عن إخلاف الدكتور طه حسين إلا لحظـات عذاب قضيتُها في منزل الآنسة أم كلثوم، وبينه وبين منـزل الدكتور طه بضع خطوات.

وفي اليوم التالي سـألت عنـه بـالتليفون لأعـرف كيـف أخلف الموعد، فاعتذر بلطف وأكّد أنه نسي ذلـك الموعـد كل النسـيان، ودعـاني إلى تجديـد الموعـد، فقلـت: إنـي أتأهب للسفر إلى بغداد للاشتراك في تـأبين الملـك غـازي، وسأحرص على التشرف بمقابلتك حين أعود.

وكنت أحب أن آنس بلقائه بعد أن رجعتُ من بغـداد، ولكنني خشيت أن يكون أخلف الموعـد الأول عـن عمـد، لأن أولاد الحلال لا يزالون (يصلحون) ما بيني وبينـه مـن صلات.

ثم سافر الدكتور طه إلى باريس، وسارت الأخبار بأنـه سيعتذر عن الحضـور في العـام المقبـل ليسـتريح مـن عنـاء المشـكلات الجامعيـة وليؤلـف كتابـاً عـن تـاريخ الشـعر العربي.

وكنت في تلك المدة شـرعت في الهجـوم علـى الأسـتاذ أحمد أمين؛ وندْ القلم فوقعت منه غمـزات تمـسْ الـدكتور طه حسين بدون موجب. وكذلك استوحشت من المضـيّ للتسليم عليه حين عرفت أنه رجع من باريس.

ثم عدت فقـررت أن أودي الواجـب في تحيـة الـدكتور طه، راجياً أن يكون في تأدية هذه التحية تبديـد للظلمـات

التي يخلقها من يأكلون العيش بحياكة الأقاويل والأراجيف .

كان ذلك في مساء اليوم الثالث عشر من شعبان ، والقمر يقدِّم إلى الوجود أفانين من الرفق والحنان ، ويذكِّر القلوب الخوامد بماضيها الجميل في مقارعة الصبوة والفتون ؛ فنزلت من السيارة عند جسر فؤاد لأمتع القلب والروح بمشاهدة النيل ، وهو يواجه القمر في أيام الطغيان ، ولأستقبل الزمالك بأدب وخشوع ؛ فما كان ثراها الغالي إلا نثائر أكباد وقلوب .

وأخذت أجتاز الزمالك من حَرَم إلى حَرَم إلى أن بلغت منزل الدكتور طه حسين . وكنت أرجو أن أجده وحده ، لأني وصلت بعد الساعة التاسعة ، وهو عنده وقت هدوء ؛ ولكن يظهر أن قدومه من السفر رفع الحجاب فكان منزله في أنس بجماعة من أهل الفضل هم الأساتذة شفيق غربال ، وعبد الواحد خلاف ، ومنصور فهمي ،

وعلي عبد الرزاق، وسعيد لطفي، وأمين الخولي، وتوفيق الحكيم، وعبد الوهاب عزام، وإبراهيم مصطفى، وعبد الحميد العبادي.

سلّمتُ على الدكتور طه تسليم المحب المشتاق، وسألته عن باريس وعن السوربون، فأجاب إجابات موجزة دلتْ على أنه يريد أن يكتم عني أشياء. فهل آذت الحرب بعض أصدقائي هناك؟ لا قدر الله ولا سمح!

وبعد لحظة حضر الأستاذ أحمد أمين فنهضت واقفاً لمصافحته، ولكنه زوى وجهه وتجاهل وجودي، ورأيت المقام لا يتسع لمحاسبته على ما صنع، فتكلفتُ الابتسام وأنا مَغِيظ.

وخَطر في البال أن حضوري قد يعكر المجلس، وأن من الخير أن أنصرف؛ ثم تذكرت أنني أحق الناس بمودة الدكتور طه حسين، وإن حالت بيننا الدسائس حيناً من الزمان، فقد كنت صديقه الحق قبل أن يعرف أصدقاء

اليوم. كنت صديقه الحميم في ظروف لا يسأل فيها الشقيق عن الشقيق، فكيف أخرج من منزله ليخلو الجوْ لصديق مثل أحمد أمين؟

يجب أن أقضي السهرة كاملة، وعلى من يؤذيه حضوري أن يتفضل بالانصراف!

وبعد أن دارت السجائر على الزائرين شرع الأستاذ أمين الخولي في الحديث

أمين الخولي ـ يا زكي، ما تترك أبداً أخلاق المنوفية؟

طه حسين ـ وما أخلاق المنوفية؟

أمين الخولي ـ هي المشاغبة واللجاجة والعناد

طه حسين ـ وزكي مبارك مشاغب؟ قل كلاماً غير هذا يا أمين، فما عرف الناس زكياً إلا مثال اللطف والأدب والذوق. الدكتور زكي حقيقة رجل لطيف؛ ومن آيات لطفه أنه ينظر فيرى الناس قد ضجروا من الهدوء

والسكون فيسلط عليهم القذائف القلمية ليتذوقوا نعمة الحركة والجدَل والنضال .

علي عبد الرزاق ـ يظهر أنك راضٍ عن الدكتور زكي مبارك .

طه حسين ـ وهل أملك غير ذلك؟

زكي مبارك ـ تملك كلمة النصح يا سيدي الدكتور، إن رأيت ما يوجب كلمة النصح

طه حسين ـ لا ، يا عم، يفتح الله!

زكي مبارك ـ يظهر يا سيدي الدكتور أنك غضبان

طه حسين ـ لست بغضبان، ولكن يحق لي أن أنزعج من بعض ما أقرأ لك

عبد الواحد خلاف ـ لعل الدكتور يشير إلى مقالاته في مهاجمة الأستاذ أحمد أمين

أحمد أمين ـ أنا أحتج على إثارة هذا الموضوع في هذا المجلس

خلاف ـ الخطب سهل، ونحن نحاول تصفية القلوب

أحمد أمين ـ أنا أحتمل كل شيء إلا التعرض لنبالتي

طه حسين ـ وهل تعرض زكي مبارك لنبالتك بشيء؟ إن هذا لو صحّ لكان خروجاً على شرعة العقل!

أحمد أمين ـ لقد تعرض لنبالتي بأَشياء

إبراهيم مصطفى ـ إن الدكتور زكي لم يتعرض لنبالتك، يا حضرة الأستاذ

زكي مبارك ـ أنتم تخوضون في شجون من الأحاديث لا عهد لي بها قبل اليوم، فما كنت أعرف أن الأستاذ أحمد أمين فوق النقد، ولا كنت أظن أن التعرض لتفنيد آرائه يعد هجوماً على قدسيته الذاتية! فهل تعتقد يا أستاذ أني تجنيت عليك؟

أحمد أمين ـ ليس لي معك كلام، ولا أقبل الدخول معك في نقاش، وأنت حرٌّ فيما تنشر من زور وبهتان

زكي مبارك ـ زور وبهتان؟ وهل النبالة أن تنطق بهذه الكلمات في هذا المجلس؟

منصور فهمي ـ لاحظ يا زكي أنك جرّحت الأستاذ أحمد أمين وأن من حقه أن يعلن غضبه عليك، والنفس الإنسانية معرضة للرضا والغضب، والفرح والترح، والرجاء والقنوط. فالأستاذ أحمد أمين يعبر تعبيراً طبيعياً عن السريرة الإنسانية.

زكي مبارك ـ وكيف يكون الحال لو استبحتُ من التعبير ما استباح؟

أحمد أمين ـ وهل تورعت عن شيء؟ إن مقالاتك عني هي الشاهد الحيُّ على مبلغ أدبك!

زكي مبارك ـ وأنا راض عما قلت فيك، وما قلت إلا الحق والصدق، وأنا أنتظر أن يغضب الله عليك فيجازيك على سوء ما صنعت في تحقير ماضي الأدب العربي

طه حسين ـ إيه الحكاية؟

أحمد أمين ـ الحكاية أن زكي مبارك يقول إن طه حسين جاهل، وإن أحمد أمين جهول!

طه حسين ـ خبر أسود!

سعيد لطفي ـ أنا كنت أظن أن المسألة مزاح في مزاح. وأين نشر الدكتور زكي هذا الكلام المزعج؟!

أحمد أمين ـ نشره في مجلة الرسالة وعند الزيات. الرسالة التي خلقتها بقلمي

زكي مبارك ـ والزيات الذي سويته بيديك!

طه حسين ـ لقد قرأت المقالة الأولى قبل السفر، وأوصيت الأستاذ عبده عزام بحفظ المجموعة لأقرأها يوم أعود، وسأقرأها في هذه الأيام، فإن رأيت فيها أني جاهل وأن أحمد أمين جهول فستكون وقعتك يا زكي زيْ الزفت!

أحمد أمين ـ وما ذنب لطفي باشا حتى يتعرض له زكي مبارك بسوء؟

إبراهيم مصطفى ـ لقد قرأت تلك المقالات مرات.

طه حسين ـ قرأتها بالقراءات السَّبع؟

إبراهيم مصطفى ـ أريد أن أقول إني قرأتها بعناية ولم أجد فيها أية إشارة لسعادة لطفي باشا

علي عبد الرزاق ـ لطفي باشا لا يُغضبه أن يكون في بال الناقدين والباحثين

زكي مبارك ـ ومن أجل هذا أهجم عليه من وقت إلى وقت.

سعيد لطفي ـ هذا أسلوب طريف في البر والوفاء!

طه حسين ـ طبعا. طبعاً، فصاحبنا زكي مبارك يتوهم أن الخلود لن يكون إلا من نصيب من يتعرض لهم في مقالاته ومؤلفاته بالقبيح أو الجميل. وأشهد أنه سلْ سخائم صدري يوم قال إنه لا يهجم علي إلا وهو يعتقد أن الهجوم معناه (بونجور)

أحمد أمين ـ وأنا لا أريد منه بونجور ولا بونسوار!

زكي مبارك ـ ولكني لن أتركك بعافية أو تكف شرك عن الأدب العربي.

أحمد أمين ـ وما شأنك بالأدب العربي؟ وما هي خدماتك لهذا الأدب الذي تقول إنك تغار عليه كما تغار على عِرضك؟

زكي مبارك ـ يكفي أني من تلامذة طه حسين

طه حسين ـ العفو! العفو! إني والله راض بأن تكون من أساتذة طه حسين!

زكي مبارك ـ يا سيدي الدكتور . . .

طه حسين ـ تقتلني حين تقول (سيدي الدكتور) وأنت ترى أني جاهل وأن أحمد أمين جهول.

علي عبد الرزاق ـ لم أشهد في حياتي أروع من هذا الحوار، وهو يستحق التسجيل.

إبراهيم مصطفى ـ بشرط ألا يذكر فيه أسمي

علي عبد الرزاق ـ وما المانع من أن يذكر أسمك في هذا الحوار؟

إبراهيم مصطفى ـ لا تعرف ما المانع. إن هذا الحديث يوم يسجَّل لن يسجله غير زكي مبارك الذي ابتدع فن الأسمار والأحاديث.

علي عبد الرزاق ـ وهل تخشى أن يتزيد عليك؟

إبراهيم مصطفى ـ أنا لا أخاف التزيد ولا أهاب الافتراء، لأني أملك تكذيب المفتريات، وأستطيع دحض الأباطيل؛ ولو كان زكي مبارك يفتري على الناس لكان أمره أخفْ وأسهل، ولكنه مع الأسف يبرع في تصوير الصدق.

منصور فهمي ـ وما الخطر من تصوير الصدق؟

إبراهيم مصطفى ـ الخطر عظيم جداً. وإليك توضيح هذه المعضلة: زكي مبارك يحرص على أن يصورك في أحسن أحوالك، وأحسن أحوال المؤمن حال الصلاة.

فهل تعرف كيف يصورك وأنت في صلاتك؟ يصورك وأنت راكع أو ساجد! فهل يرضيك أن تصوّر في حال الركوع أو السجود؟

توفيق الحكيم ـ هذه أخيلة باريسية، وهي تشهد بروعة ذكائك يا أستاذ إبراهيم.

إبراهيم مصطفى ـ العفو، يا أستاذ توفيق، فتلك وثبة من الخيال ساقها هذا الحوار الطريف.

أحمد أمين ـ أرجو أن تعفوني من هذه المطايبات، فلولا مراعاة المقام لانصرفت.

طه حسين ـ أؤكد لك أن الدكتور زكي لم يقصد إيذاءك فيما كتب عنك. ألم تر كيف احتملته سنين وهو يلحْ في اتهامي بالجهل؟

زكي مبارك ـ لم أتهم سيدي الدكتور بالجهل المطلق، معاذ الله، وإنما اتهمته بالجهل بالقياس إلى المسيو برونو

والمسيو دي لاكروا، وقد توليا عمادة كلية الآداب في باريس.

أمين الخولي ـ كلام طيب، يا فتوة المنوفية، فلا مانع عند الدكتور طه من أن يكون في باريس من هو أعلم منه، فقد تخرَّج في مدينة النور وهو يثني على أساتذتها في كل حين، ولكنك اتهمت الأستاذ أحمد أمين بالعاميّة الفكرية، فما هو المخرج من هذا الاتهام الفظيع؟

زكي مبارك ـ لم أتهم الأستاذ أحمد أمين بالعامية المطلقة، ولكن بالقياس إلى الشيخ خربوش.

طه حسين ـ ومن الشيخ خربوش؟

زكي مبارك ـ الشيخ خربوش عالم علاّمة لا يقاس إليه الأستاذ أحمد أمين.

علي عبد الرزاق ـ ألم أقل لكم إن هذا الحوار يستحق التدوين؟

عبد الواحد خلاف ـ هذا الحوار ينفع في تهدئة أعصاب الأستاذ أحمد أمين، وقد بدأ يبتسم، ولكن المهم هو الاستفادة من هذا المجلس في تغيير المذهب الأدبي للدكتور زكي مبارك، فهو أقدر أدبائنا جميعاً على إحداث الضجات الأدبية، ولا أدري كيف رجع سليماً من العراق . . .

توفيق الحكيم ـ كنت تنتظر أن يلقى حتفه هناك؟

طه حسين ـ كان يستريح ويريح، كما قال أحد الكتّاب

زكي مبارك :

لن تزالوا كذلكم ثم لا زل . . ت لكم خالداً خلود الجبال

أحمد أمين ـ أي جبال وأي خلود؟ أليست لنا أقلام تفل قلمك بأيسر جهد؟

عبد الواحد خلاف ـ أرجو أن تسمعوا بقية كلامي . إن زكي مبارك أقدر أدبائنا جميعاً على إحداث الضجات الأدبية، ولكنه لا يوجِّه نشاطه إلى ما يفيد .

زكي مبارك ـ وبماذا تشير أيها السيد؟

عبد الواحد خلاف ـ أشير بأن تعود سيرتك يوم كنت تؤلف في النثر الفني والتصوف الإسلامي، فتوجه مجادلاتك ومصاولاتك إلى القدماء.

طه حسين ـ الأمل بعيد في توجيه الدكتور زكي مبارك إلى ما يفيد وينفع.

زكي مبارك ـ يا سيدي الدكتور . . .

طه حسين ـ فلقتني يا أخي بعبارة (سيدي الدكتور) وقد تحيرت في أمرك، فأنت في المجلس رجل لطيف، ولكنك حين تخلو إلى قلمك تنقلب إلى شيطان مَريد.

أمين الخولي ـ دافع عن نفسك يا زكي فإني أخشى أن ينهزم فتوة المنوفية.

زكي مبارك ـ لي كلمة يا سيدي الدكتور، ولا تؤاخذني بالحرص على هذه العبارة، فقد حضرت دروسك بضع سنين ولا أستبيح الهجوم عليك.

طه حسين ـ ألم أقل لكم إن زكي مبارك رجل

زكي مبارك ـ أشكر لك هذا اللطف يا سيدي الدكتور، ثم أقول إني تلقيت عنك مبادئ الظلم والاعتساف.

عبد الوهاب عزام ـ إيوه، يا عم زكي، هات ما عندك هات.

زكي مبارك ـ تذكرون المناوشة التي قامت بين الدكتور طه والدكتور منصور على صفحات الأهرام في سنة ١٩٢١؟

منصور فهمي ـ أية مناوشة؟ ذَكِّرني فقد نسيت

زكي مبارك ـ كنت يا سيدي الدكتور أثنيت على أسلوب المنفلوطي، فهاج أستاذنا الدكتور طه وماج، ودعاك إلى أن تسمي الجمل جَملاً والأرنب أرنباً، أو كما قال، ومعنى ذلك أن المنفلوطي ليس بكاتب ولا أديب.

طه حسين ـ ثم؟

زكي مبارك ـ ثم جاء الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين الذي أنكر أن يكون المنفلوطي كاتباً أو أديباً فاعترف بأن الأستاذ أحمد أمين كاتب وأديب وسمح بأن يدرس أسلوبه على طلبة السنة الأولى بكلية الآداب.

طه حسين ـ ما هذا الحشيش؟

زكي مبارك ـ أنا لم أذق الحشيش أبداً، ولكني أؤكد أن أسلوب أحمد أمين يدرس في كلية الآداب

طه حسين ـ هذا مستحيل

أحمد أمين ـ الكلية تدرس أساليب المعاصرين جميعاً.

زكي مبارك ـ وأنت كاتب ولك أسلوب؟

منصور فهمي ـ احترس يا زكي من الخروج على أدب الخطاب

أحمد أمين ـ ليتكم صدقتموني حين قلت إن زكي مبارك لا ينقد الباحث نقد العالم للعالم وإنما ينقده نقد المصارع للعالم

زكي مبارك ـ وأنت عالم يا أستاذ؟ وهل يكال العلم أيضاً بمكيال؟

أحمد أمين ـ العلم كله عندك، ونحن تلاميذ مبتدئون!

علي عبد الرزاق ـ هذا الحوار لا يستحق التسجيل!

عبد الحميد العبادي ـ هو على كل حال صورة من صور التاريخ!

توفيق الحكيم ـ أنا والله شديد الحسرة على ما وصلنا إليه؛ فقد كنت أحب أن تكون بين الأدباء صداقات عظيمة كالذي يعرفه الأدباء العظماء في باريس ولندن وبرلين

عبد الوهاب عزام ـ وكالذي شهدناه بين زكي مبارك وأحمد أمين!

طه حسين ـ إن ذهني لا يسيغ القول بأن النقد يفسد ما بين الأصدقاء

شفيق غربال ـ أعتقد أن الدكتور زكي رجل طيب القلب. وقد قرأت مقالاته عن الأستاذ أحمد أمين بارتياح، وجنيت منها كثيراً من الفوائد الأدبية. ولو أنه نزه قلمه عن بعض العبارات التي جرت مجرى السخرية من الأستاذ أحمد أمين لما استطاع أحد أن يوجه إليه أي ملام.

توفيق الحكيم ـ ولهذه المقالات مزية أخرى غير الفوائد الأدبية، فقد بغَّضتني في الجو الأدبي عندنا وحبّبت إليّ قضاء الصيف في أوربا، ولم أرجع إلا بعد أن ظننت أنها انتهت؛ ثم كانت حسرتي شديدة حين رأيت أن زكي مبارك لا يزال يبدي ويعيد في شرح جنايات أحمد أمين. ولولا الحرب لرجعت من حيث أتيت، فمن أين يجد زكي مبارك كل هذا الكلام الطويل العريض؟

شفيق غربال ـ المسئول عن هذه المتاعب هو الأستاذ أحمد أمين.

أحمد أمين ـ أنا المسئول؟

شفيق غربال ـ بالتأكيد، أنت المسئول، لأنك مضيت في بحثك طول الصيف، وهيأت المجال للدكتور زكي مبارك. والذي يقدِّم الوقود للنار لا ينكر عليها الاشتعال

طه حسين ـ هل أفهم من هذا أن الجوْ الأدبي عرف الحياة في هذا الصيف؟

زكي مبارك ـ يكفي يا سيدي الدكتور أن تعرف أن الأستاذ أحمد أمين نقل مكتبته إلى الإسكندرية في هذا الصيف ليجد الشواهد تحت يديه وهو يردّ عليّ.

أحمد أمين ـ أنا رددت عليك؟ وهل قلتَ كلاماً يُرَدّ عليه؟

زكي مبارك ـ الله يعلم كيف شغلت قلبك وعقلك، وكيف قهرتك على مراجعة المؤلفات الأدبية، والمصنفات الفقهية. وهل تستطيع يا أستاذ أن تقول إنك تجهل منزلتي الأدبية؟

أحمد أمين ـ إن مقالاتك في الهجوم عليّ زهدت القراء في علمك وأدبك .

شفيق غربال ـ سمعت غير هذا . سمعت أن مقالات الدكتور زكي مبارك في الهجوم على الأستاذ أحمد أمين دلتْ على اطلاع فائق وتفكير عميق ، وسمعت من يقول إنه لم يعرف قيمة زكي مبارك إلا بفضل هذه المقالات .

منصور فهمي ـ وهذا يشرح جانباً من عقلية المجتمع ، فالجمهور يعرف زكي مبارك الناقد ولا يعرف زكي مبارك المؤلف ، لأنه ينقد وهو ثائر ويؤلف وهو هادئ .

طه حسين ـ زكي مبارك يصطنع الثورة في كل شيء حتى التأليف ، ولكن ثورته في مؤلفاته لا تلفت نظر الجمهور لأنها في الأغلب متصلة بالقدماء ، والهجوم على القدماء لا يثير تطلُّع الناس إلا حين يمس العقائد من قرب أو من بعد ، كالذي وقع يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلي

زكي مبارك ـ ومن أجل هـذا حـرص سـيدي الـدكتور على تغليظ بعض الألفاظ ليوجه الأنظار إلى كتابه النفيس !

طه حسين ـ وبعدين لك ، يا دكتور زكي ؟

زكي مبارك ـ لا بَعْـدين ولا قَـبْلين ، ولكـني أحـب أن أعرف كيف تكون الصـراحة حـلالاً في وقـت وحرامـاً في وقت؟ وكيف يحلْ لسيدي الـدكتور مـا يحـرُم علـى سـائر الناس؟

طه حسين ـ يظهر أنك تحب أن تتمتـع بالحريـة الكاملـة في حياتك العقلية ، ويظهر مع الأسـف أنـك لم تعتـبر بمـا عاناه أحرار الفكر في هذه البلاد ، فما تحسدني عليه حـلال لك حين تشاء . وإني أرجو أن يبعد اليوم الذي ترجع فيـه عن شططك وجموحك ، اليوم الذي تيئس فيه من إنصـاف الناس كما يئستُ من إنصاف الناس .

منصور فهمي ـ ولكن مـا الموجـب للتعـرض لمـا يمـس العقائد؟

طه حسين ـ اسأل نفسك يا منصور فلك مع العقائد تاريخ .

منصور فهمي ـ كان ذلك في عهد الشباب

طه حسين ـ وكان مني ما كان في عهد الشباب ، وإن لم يمض عليه غير عشر سنين ، والحسرة تلذع قلبي كلما تذكرت أني لا أملك مكايدة الجماهير من جديد . وهل نكايد الجماهير إلا بفضل ما يثور في دمائنا من ثورة وطغيان؟

عبد الواحد خلاف ـ ومعنى ذلك أن الدكتور زكي مبارك يكايد جماهير الأدباء لأنه لا يزال في عنفوان الشباب؟

طه حسين ـ الذي أعرفه أن زكي مبارك صار من طبقة الكهول ، بحكم السن على الأقل ، فقد شهدت مشاغبته بدروس الأستاذ علي عبد الرزاق في الأزهر سنة ١٩١٢

زكي مبارك ـ وأنا شهدت مشاغبتك يا سيدي الـدكتور بدروس الشيخ محمد المهدي في الجامعة المصرية سنة ١٩١٣

أحمـد أمـين ـ ومـع هـذه السـن العاليـة لا يـزال زكـي مباركك يمعن في الغزل والتشبيب كأنه في سن العشرين

شفيق غربال ـ هذه الدعابة تدل على أن الأسـتاذ أحمـد أمين صفت نفسه وطابت .

طه حسـين ـ فهـل نرجـو أن يكـف زكـي مبـارك عـن العدوان بعد هذا الصفاء؟

زكي مبارك ـ هل تصافينا حقيقة؟

أحمد أمين ـ لن نتصافى أبداً بعد الذي كان

زكي مبارك ـ يظهـر انـك تسـتروح بـالهجوم عليـك ، وسـأخيِّب ظنـك فأسـكت عنـك بعـد ثـلاث أو أربـع مقالات . . . مساء الخير ، يا سيدي الدكتور ، والحمد لله الذي أرجعك إلينا بخير وعافية .

إلى الدكتور طه حسين بك

أيها الأستاذ الجليل :

تلطفت فأوصيتني بكتمان الحديث الذي دار بيني وبينك في حضرة (الصديق العظيم) الذي يحل وداده من قلبي وقلبك أعز مكان، وأنا أستطيع النص على اسم ذلك (الصديق العظيم) بلا تهيب لعواقب العتاب، لأن للحديث الذي جرى بين وبينك في حضرته صلة وثيقة بأصول المذاهب الأدبية التي يشتجر حولها الخلاف في كثير من الأحايين. فإن قلت أن هذا (الصديق العظيم) خلع على ذلك الحديث حلة من الدعابة التي نشهد بما يملك من عذوبة الروح، وأنه قد يكره أن يشار إلى اسمه في مجال الدعابة والظرف، فإني أجيب بأن ذلك (الصديق العظيم) أرحب صدراً مما تظن، وهو أكبر من أن يرى أن جلال المنصب يمنع من التندر الجميل.

لا خوف من النص على اسم ذلـك الصـديق، ولكـني سأعمل بوصيتك ليصح لي القول بأني لا أتمـرد عليـك في كل وقت، وليصـح لـك الظـن بـأني اقـدر علـى مراعـاة الظروف حين أشاء.

ثم ماذا؟

ثم أستطيع لنفسي التحدث عن بعـض مـا شـجر بـيني وبينك. ويظهـر أن المقـادير لا تريـد أن أسـكت عنـك أو تسكت عني، وفي ذلك الخير كل الخير لو تعرف وأعرف. وهل ارتفع العقل إلا بفضل الخلاف؟ وهل يتصور النـاس وجوداً للحيوية التشريعية لو لم يثر الخلاف بـين الشـافعية والحنفية؟ وهـل تأصـلت مشـكلات النحـو والصـرف إلا بفضل الجدال بين البصريين والكوفيين؟ وهل تفوق العقل المصري في العصر الحديث إلا بسبب النـزاع حـول القـديم والجديد، والصراع حول المذاهب الاجتماعية والأحـزاب السياسية؟

أن الخلاف نعمة عظيمة جدا، ويا ويلنا إذا لم نختلف فكيف تريد أن أكون صديقاً ظريفاً لا تسمع منه غير الكلام المعسول؟

وهل قل الظرفاء من أصدقائك حتى تطالبني بما تعجز عنه سجيتي؟

إن (بداوة الطبع) التي كثر الكلام في ذمها وتجريحها لم تكن من المثالب إلا في كلام الشعوبية، وهم قوم أرادوا الغض من الشمائل العربية، ولولا ذلك الهجوم الأثيم لبقيت من المحامد، فكيف تنكر على رجل مثلي أن يظل بدوي الطبع في زمن توارت فيه الصراحة وكثر فيه تنميق الأحاديث؟

لابد من خلاف بيني وبينك لتجد الأبحاث الأدبية والفلسفية وقوداً يحيا به اللهب المقدس في حياة العقل والوجدان.

فإن ضاق صدرك بهذه الحقيقة واكتفيت بمحاورة الرجل اللطيف الذي يقول أن الصحراء تشكو الظمأ وأن البحر يشكو الري وأن الخير في امتزاج البحر بالصحراء. إن كان ذلك ما يرضيك فشرق في محاورته وغرب كيف شئت وكيف شاء.

ولكن ما رأيك فيمن يصارحك بأن الحيوية لن تشيع في أبحاثك إلا إذا حاورت (الرجل الذي لا يخلو إلى قلمه إلا وفي رأسه عفريت)؟

تلك كلمتك، يا سيدي الدكتور، وأنا عنها راض وبها مختال؟

فما هو العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي؟

أيكون هو الجن الذي سماه الفرنسيون

إن كان ذلك فأنت تشهد لي بالعبقرية، والقول ما قال طه حسين وهل تكون العبقرية إلا من نصيب من يخاصم رجلاً مثلك في سبيل الحق؟

وما هي المنفعة التي أرجوها من مخاصمتك وأنت رجل يضر وينفع؟

ما هي المنفعة التي أجنيها من مخاصمتك وقد صاحبتك عشر سنين كانت أطيب الأوقات في حياتي؟

يظهر انك لا تعلم انك على جانب عظيم من الجاذبية وأن الرجل العاقل لا يترك مودتك وهو طائع.

فما سبب الخصومة بيني وبينك؟

إليك أقباساً من البيان:

منذ أكثر من سبعة أعوام ألقيت محاضرة في الجامعة الأمريكية عن البحتري سجلتها جريدة كوكب الشرق، وشاء (العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي) أن أنشر في جريدة البلاغ مقالاً عنوانه.

(الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط في محاضرة واحدة)

ثم لقيتني بعد ذلك في الجامعة الأمريكية وجادلتني في تلك الأغلاط فأعلنت أني أخطأت، وكان ذلك لأن الجمهور أحاط بنا من كل جانب ليرى كيف أدفع هجومك، وما كان يجوز لي أن أصنع غير الذي صنعت، لأن أدبي لا يسمح لي بمصاولتك أمام الناس، ولان وجهك يشفع لك، فهو وجه لا يلقاه الرجل الحر بغير الإعزاز والتبجيل.

فما الذي صنعت أنت في تصحيح الأغلاط التي أخذتها عليك؟

مضيت فنشرت محاضرتك عن البحتري في كتابك: (حديث النثر والشعر)، وأبقيت تلك الأغلاط، أستغفر الله، بل (تفضلت) فشكلت الكلمات المغلوطة لتقول: إنك لا تعبأ بأي نقد يوجه إليك!!

فما الذي كان يمنع من تدارك تلك الأغلاط؟ وما الذي كان يمنع من شرح رأيك في الهامش إن كنت تؤمن بأني لم أكن على حق؟؟

ثم ماذا؟

ثم حدث في صيف سنة ١٩٢٩ أن أنكرت على أن أتخذ شواهد لتطور (النثر الفني) من رسائل عبد الحميد بن يحيى. وقلت: إن عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس! وكان ذلك بمسمع من شابين واعيين هما: محمد مندور وعلي حافظ. وكانت حجتك أن عبد الحميد بن يحيى لم يرد اسمه في مؤلفات الجاحظ، فرجعت إليك بعد أيام وأخبرتك أن الجاحظ تكلم عن عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة، وإن مؤلفات الجاحظ تعرف رجلين: أحدهما عبد الحميد الأكبر والثاني عبد الحميد الأصغر، فلم تجب بحرف واحد. ثم ألقيت وأنا في باريس محاضرة قلت فيها: إن عبد الحميد بن يحيى أخذ أشياء من

أدب اليونان؛ وفاتك أن تنص على اسم الرجل الذي أقنعك بأنه لم يكن شخصية خرافية.

وقد حملني (العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي) على أن أسجل هذه القضية في أحد هوامش كتاب النثر الفني، فكانت فرصة اغتنمها صديقك الأستاذ أحمد أمين ليقول في مقال كتبه في مجلة الرسالة: إن زكي مبارك يعوزه الذوق في بعض الأحيان!!

ثم ماذا؟

ثم كانت لك يد مؤثرة في شؤون الدراسة الثانوية بحجة أنها تمهيد للدراسة الجامعية، وكان من أثر ذلك أن فرضت على طلبة السنة الخامسة بالمدارس الثانوية كتاباً في نقد النثر لقدامة بن جعفر لا يفهمه المدرسون إلا بعناء فضلاً عن التلاميذ.

وأقول بصراحة إني لم أفلح في حمل المفتشين على مقاومتك، فبرزت لك بنفسي في مقال نشرته بمجلة

الرسالة، فهل استجبت لصوت الحق وأعفيت التلاميذ من كتاب تقوم تعاريفه على منطق أرسطظالس وهم يجهلونه كل الجهل؟

أنت عزيز علينا يا سيدي الدكتور، لأنك رجل شهم، ولكن ما رأيك في أغلاطك؟ ومن يدلك عليها إذا سكت عنك؟

هل تذكر كلمة (الصديق العظيم) منذ أيام حين قال لك وهو يبتسم: كيف صيرتم زكي مبارك دكتوراً وهو رجلٌ مشاغب؟

أنت تذكر ذلك ولا ريب، ولكنك تعرف أني لم أنل ألقاب الجامعة المصرية بلا جهاد، وأنت نفسك أسقطتني في امتحان الليسانس مرتين، واشتركت في امتحان الدكتوراه الذي أديته أول مرة مع انك لم تكن عضواً في لجنة الامتحان، وكان لخصومتك الصورية تأثير في

الدكتوراه التي ظفرت بها للمرة الثالثة فلم أصل إليها إلا بعد جهاد سبع سنين .

فما فضلك علي أن لم يكن فضل المؤدب الحصيف؟

هل تذكر يا دكتور ما وقع في نوفمبر سنة ١٩١٩ ؟

هل تذكر ما وقع يوم غاب سكرتيرك وكنت وحدي الطالب الذي يفهم العبارة الفرنسية لكتاب نظام الآتينيين لأرسطاليس؟

وهل تذكر انك أعلنت سرورك بأن يكون في طلبة الجامعة المصرية من يفهم أسرار اللغة الفرنسية؟

فمن يبلغك أن الشاب الذي أدخل السرور على قلبك في سنة ١٩١٩ هو الكهل الذي تنكره في سنة ١٩٤٠؟

أنا أعرف ما تكره مني . أنت تكره مني الكبرياء ، وكيف أتواضع وقد أعانني الله على بناء نفسي؟ كيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصري خليق بعظمة الاعتماد على النفس؟ وهل رأيت رجلاً قبلي أتم دراسته

في أوربا وهو مثقل بتكاليف الأهـل والأبنـاء؟ هـل رأيـت رجلاً قبلي يهتف بأوطار الشباب وهو مثخن بجراح الزمان بعد الأربعين؟ هل رأيت رجلاً قبلي يؤلف الكتـب الجيـدة في البواخر والقطارات والسيارات؟

ومن يصدق أني أنفق في سبيل الورق والمـداد أضـعاف ما ينفق بعض الناس في سبيل الطعام والشراب؟

إن الدكتور هـ من ذخائرنا الأدبية، ويجـب أن يعـيش، ونحن سناده في الخطأ والصـواب رعايـة لمركـزه في الجامعـة وفي وزارة المعـارف، وهـو خليـقٌ بمركـزه في الجامعـة وفي وزارة المعارف أيها الأستاذ الجليل:

في صـدري أشـياء وشـؤون وشـجون، فمتـى أنفـض همومي بين يديك وقـد رأيـت الشـيب يشـتعل في شـعرك الجميل؟

متى نلتقي أيها الأستاذ الجليل لتصفية الحساب؟

إن (العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي) لا يحضر حين ألقاك، لأني لا أرى وجهك إلا تذكرت أني أحببتك إلى حد العشق.

فمتى نلتقي وحولك أرصاد يؤذيهم أن أصل إلى قلبك الرفيق؟

وهل أجهل أو تجهل أن في الدنيا ناساً عاشوا بإفساد ما بيني وبينك؟ الله وحده يشهد أني لم أخاصمك إلا في سبيل الحق.

والله وحده يشهد أني لم أقل فيك غير ما استبحت نشره في الجرائد والمجلات. ومن ذلك تعرف أن (العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي) لم يكن عفريتاً لئيماً، وإنما هو عفريت تلميذك وزميلك وصديقك:

زكي مبارك

تشريح عاطفة الحب

أيها الأستاذ الجليل :

سألتني يوم لقيتك بوزارة المعارف في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامي بالحديث عن الحب ، وقد جرى ذكر كتاب (ليلى المريضة في العراق) ، وكانت الابتسامة التي شع ضوءها في ملامح وجهك ، تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب المحب المتيم المتبول !

فأجبتك بأن شواغلي في الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبي . ولكن حديثي عن الحب صار مذهباً أدبياً أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن اخلق جواً من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان !

فابتسمت ابتسامة لها معنى وقلت : اخلق البشاشة في الزمن أن استطعت!

ثم خضنا بعد ذلك في شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حي . . .

ويهمني اليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول في جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخل بعض الناس في شؤون قد يجهلونها كل الجهل ، أو يتحمسون لها بعقيدة مدخولة وإيمان مصنوع .

ونحن لم نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود . وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب؟ ولأي غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية؟

إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون انهم وجدوا الحجج الدوامغ حين استطاعوا أن يقولوا: أن الدنيا في حرب، وان الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب!

وأقول: إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مراض، فالحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء، وهو يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب. وهل كان عنترة بن شداد ماجناً حين قال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ . . . منى وبيض الهند تقطر من دمي

فوددتُ تقبيل السيوف لأنها . . . لمعت كبارق ثغرك المتبَّسم

وما هتف به عنترة هتف به ضابط مصري سمحت له لجنة الأناشيد العسكرية بأن يقول:

مين زيك عندي يا خضره . . . في الرقة يا غصن ألبان

ما تجودي عليّ بنظره . . . وأنا رايح عَ الميدان

وهذا الضابط اسمه عبد المنصف محمود، ولا أعرف كيف اهتدى إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش في زمن مثقل بآصار التصنع والرياء.

لقد قيل إن هذا نشيد لا يصلح للجنود وهم يتأهبون للقتال.

وأقول إن هذا النشيد من شواهد العافية، فلكل جندي في الجيش أوطار روحية يحن إليها حنين الأصحاء، وتلك الأوطار الروحية هي الحافز الأعظم للاستبسال في ميادين الشرف والوطنية. والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبداً للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي، لأن الوطن لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب.

وأنا أنتظر أن يسود ذلك النشيد على سائر الأناشيد، فقد هتف به جندي سليم الجسد والروح، وهو أفضل من الأناشيد التي ينظمها شعراء لم يعرفوا الفرق بين السيف والرمح، ولم يسمعوا صوت المدفع إلا في ليالي رمضان!

من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب، ولك فيه تاريخ، ولكني احب أن أعرف كيف يندر أن نجد بين كتابنا من يهتم بتشريح عاطفة الحب؟ وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب فناً من فنون المزاح؟

الحب جده جد، وهزله جد، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ في تلوين الوجود.

الحب جد صراح، والاهتمام بدرسه يؤدي خدمات عظيمة لعلم النفس، فكيف نسكت عن درسه وهو يواجه الناس في جميع الميادين؟ كيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع، وله تأثير شديد في توجيه مصاير الرجال؟

وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب؟

وكيف يجوز أن يقهرني العيش في عصر التزمت على الدفاع عن كتاب (ليلى المريضة في العراق) وهو كتاب أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل؟

إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يهتفون بغير أوطار القلوب.

وأين نحن من العصر الذي عاش فيه عمر بن أبي ربيعه، أو العصر الذي عاش فيه العباس بن الأحنف، أو العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي؟

وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية في هذا العصر تفوق الحاسة الدينية في أعصر أولئك الشعراء؟

لا يمكن القول بذلك، فنحن بشهادة رجال الدين أقل حرصاً على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصرهم

أولئك الشعراء، والله يغفر لي ولك ولسائر أهل هذا الجيل!

الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح

كان أسلافنا أصحاء، فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال، وكان الرجل الديان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزل والنسيب، وكان هناك توازن بين حقوق القلوب وحقوق العقول، فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التي تجمع في شعابها بين حياض الأزهار والرياحين ومسارب الأفاعي والصلال.

وأين نحن اليوم من أولئك الأسلاف؟

في مساجدهم رويت طرائف الأشعار، ونوقشت مذاهب الزيغ بلا تحامل ولا إسراف، وفي بيوت أتقيائهم دونت أوهام القلوب والعقول، وعلى ألسنة أصفيائهم

جرت أحاديث الشك والارتياب، وبفضل ذوقهم الأدبي والفني عاشت أضاليل لها صلات بحيوات الآداب والفنون

أما عصرنا الذي أعرف وتعرف فهو عصر الرسوم والأشكال، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق.

وإلا فأين الرجل الصالح الذي يقهرك روحه على التزام حدود الدين؟

وأين المفكر الذي يقهرك إخلاصه للفكر على التزام حدود العقل؟

وأين الأديب الذي يحدثك عن نفسه فتشعر بأنه صادق كل الصدق؟

ومن اجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترت حماسة الناس للفكر والأدب والدين، وأصبحت القلوب في مثل حال الشراب المقتول

وهنا أجد الجواب عن سؤالك، أيها الأستاذ الجليل

فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية، وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وما أسمع، وآية ذلك أني لم أنته ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبتك في جريدة السياسة يوم ظهر كتاب (مدامع العشاق) وقد قلت أنه يحرض على الشهوات، سامحك الله وغفر لك!

وأنا أجد في كل شيء، أجد في الصداقة والعداوة، وأجد في الشك واليقين، وليس أمامي مجال للمزاح، وكيف يتسع وقتي للمزاح وما قضيت يوماً خالياً من الشقاء بالدنيا والناس؟

فما أرضاك عني فهو حق، وما نفرك مني فهو حق، وما خصصتك بغضبي ورضاي إلا لأني أعرف انك تعاقر من فرح الحياة وحزن الحياة بعض ما أعاني. وأنا موقن بأنك تفهم عني ما أريد، لأنك تعرف من سريرتي ما لا يعرف سواك

فما رأيك في الحب؟

ألا ترى انه عاطفة تستحق أن نتأثرها في جميع المسالك؟

وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء؟

وهل يرضيك أن نصير إلى ما صار إليه من يختارون المحفوظات لتلاميذ المدارس، وقد تحاشوا جميع الأشعار التي تفصح عن أوطار القلوب.

لو كان جميع المعاصرين من (العارفين بالله) لخف الأمر وهان، ولكن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب من المذياع، ويرون آثاره على الشاشة البيضاء، وفيهم من يتمنى لو سارت أشعاره بين أغاريد أم كلثوم وعبد الوهاب!

يجب أن تعرف أني أخاطب الدكتور طه حسين الذي نقل أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب، والذي يحاول أن يطبع الجمهور المصري على تذوق الموسيقى الأوربية،

لأنها في رأيه من أصلح الأدوات للتعبير عن العواطف والأهواء.

والأوربيون الذي تعرفهم لا يرون الحب من المزاح، وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية، وتشريح عاطفة الحب هو عندي باب لتربية العواطف.

تربية العواطف؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زماني ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وشناعة الأراجيف!

نعم، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف، وليقل من شاء ما شاء.

كل شيء في بلادنا موضع اهتمام إلا العواطف، وإهمال العواطف ستكون له آثام أيسرها رياضة الشبان على رذيلة (عدم الاكتراث) وهي أقبح الرذائل وأشدها تأثيراً في قتل حيوية الشعوب.

وهل تستطيع القول بأن الرأي العام عندنا يحس هذه المعاني؟

وما الرأي العام؟ أليس صدى لآراء الباحثين والمدرسين وهم عندنا قوم هيابون خوافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول؟

وخمود العواطف هو الذي قتل الشاعرية في مصر، وهو الذي جعل المصريين أقل الناس إحساساً بمعاني الوجود، وإلا فحدثني عما أقيم على شواطئ النيل من ملاعب، وما أقيم فوق عبابه من سهرات يغنى فيها الشعر ويرقص الخيال؟

هل عندك نبأ عن حدائق القناطر الخيرية؟ وهل سمعت أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تنشئ فندقاً هناك؟ ولمن تقام الفنادق في تلك الضاحية السحرية وليس فينا رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل في شهر آب؟

وهل عندك نبأ عن حديقة الأزبكية؟

ألم تسمع أن حديقة الأزبكية ليس فيها مكان تشرب فيه فنجاناً من القهوة أو الشاي إذا بدا لك أن تقضي فيها ساعة أو ساعتين لمحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك؟

ويتحدث الناس في هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة زيارة جلالة الملك لإقليم الفيوم، فهل تعرف أنه لا يمكن قضاء ليلة بجوار تلك البحيرة إلا في فندق أقامه هناك أحد الألمان؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعراً مصرياً قضى ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة؟

وما رأيك في (بحيرة التمساح)؟

هل سمعت لها خبراً في قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب من أهل هذه البلاد؟

وهل خطر لك أن تقضي ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف شيئاً من أخبار مدينة الإسماعيلية؟

ولا موجب لتذكيرك بالأقصر وأسوان: فالناس جميعاً يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المغاني، وإليهم يرجع الفضل في إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك، على أيامها ولياليها أطيب التحية وأزكى السلام!

وما لي أبعد بك فأنقلك إلى تلك البقاع النائية؟

هل اتفق لك أن تلقى درساً من دروسك بين الأشجار التي تحدق بكلية الآداب؟

وهل فكر أستاذنا لطفي باشا في محادثة طلبة الجامعة عن أرسطاليس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون في حكم المفقود، فما رأيك في الدعوة إلى الطب لهذا المرض العضال؟

وكيف نطب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب ضرباً من المزاح؟

كيف وقد تهيبت تقديم كتاب (ليلى المريضة في العراق) إلى محرري الجرائد المصرية لئلا أقرأ لأحدهم كلمة تؤذيني بلا موجب معقول؟

وما رأيك إذا حدثتك بأني عجزت في مصر عن بعض ما قدرت عليه في العراق؟

كنت أحب أن أؤلف كتاباً عن (ليلى المريضة في الزمالك) افصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب في هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحاً من أرواح الوجدان، ولكني خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء.

فهل أرجو أن يصر قلمك بما تهيب منه قلمي؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب (ليلى المريضة في العراق) فأرني كيف تصنع وكيف تصور عصرك وزمانك

كما صورت عصري وزماني. نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية.

فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان؟

نحن نفكر في خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية.

ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء، ويطمعنا في الخلود.

ليتني أستطيع مصارحتك بكل ما أريد في خلق الحيوية الأدبية والفنية!

وكيف أستطيع وأنت كثير التلوم والتعتب، ولا يصل إليك الرأي الصريح إلا مشوباً بتهمة التحامل عليك؟

أنت على كل حال من ذخائرنـا الأدبيـة، وأنـا أقبلـك على علاتك كما تقبلني على علاتي.

فهل يكون من الفضـول أن أصـارحك بأنـك لا تقبـل على حياة الوجدان إلا وأنت خائف، مع انك قوي العبارة في الإفصاح عن وساوس نفسك، ونوازع قلبك؟

وما خوفك وقد استقام لك أمر مصيرك الأدبـي وصـار اسمك من أظهر الأسماء؟

ما خوفك مـن الاعـتراف بـأن عاطفـة الحـب تسـتحق التشريح؟

وما الذي يـدعوك إلى الاحـتراس حـين أقـترح عليـك تـأليف كتـاب عمـا أحـس شـعراء العـرب مـن النـوازع الوجدانية؟

أتخاف أهل الجمود؟

أطمـئن، يـا سـيدي الـدكتور، فهـم في شـغل عنـا بمصايرهم الدنيوية، ولن يفرغوا لنا إلا بعـد أن نفـرغ مـن إعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب.

أما بعد فأنا أعلن عتبي عليك، لأنك ابتسمت ابتسـامة فيها طيفٌ من الاعتراض علـى اهتمـامي بتشـريح عاطفـة الحب، وأصارحك بأن هذا مذهبٌ أدبيٌ سأحرص عليه ما دمت أملك القدرة على تشريح العواطف والأحاسيس.

فـافتح قلبـك، يـا سـيدي الـدكتور، لـوحي الحيـاة والحب، واعلم أن الابتسـام الصـادق هـو أثمـن مـا يملـك الرجال.

وقد شاءت المقادير أن أستطيع مقابلتك في كل يوم بعد أن صرت معنا في وزارة المعارف، وسأحولك إلى حزبنـا، حزب الأخوة الأدبيـة الـذي يـرى أقطـار العربيـة جسـماً واحداً إذا شكا منه عضو أسعدته سـائر الأعضـاء بالسـهر والأنين.

وسـتريك الأيـام بعـد قليـل أن الميـزان الـذي كنـت احتكمت إليه في تقدير العداوات والصداقات لم يكن أدق الموازين . . . والله المسؤول أن يديم عليك عافيـة القلـب وشباب الروح .

أحمد الله إليك!

في شهر يولية سنة ١٩٢٨ تلقيت وأنا في باريس خطاباً من الأستاذ الدكتور طه حسين بك جاءت فيه عبارة: (أحمد الله إليك)؛ فالتفت ذهني إلى هذه العبارة، لأنها لم تكن من العبارات المألوفة في رسائله إليَّ، وقلت لنفسي: من أين وصل هذا التعبير إلى الدكتور طه حسين وهو في هذه الأيام يعيش في جيرار يير؟

وصح عندي بعد التأمل أن الدكتور طه قد يكن مشغولاً بمراجعات متصلة بالسيرة النبوية، لأن عبارة (أحمد الله إليك) تكثر في الرسائل المأثورة عن عصر النبوة وعصر الخلفاء.

وبعد أعوام أخرج الدكتور طه كتابه (على هامش السيرة) وتفضل فأهداني نسخة ممهورة بعبارة كريمة من عبارات الإهداء، وكنت حينئذ أحرر الصفحة الأدبية

بجريدة البلاغ، فرأيت أن أتحدث عنه إلى قرائي بعناية تحملهم على اقتناء ذلك الكتاب، تحقيقاً للتضامن بين المؤلفين.

فماذا قلت؟ قلت: إن الدكتور طه يجيد أعظم الإجادة حين يتروى في التأليف، وكتابه الجديد أثرٌ من آثاره الجيدة في تروّيه، فهو مشغول بموضوعه منذ سنة ١٩٢٨، وإن لم يقل ذلك، فقد كتب إليَّ خطاباً في شهر يوليه من تلك السنة يقول فيه: (أحمد الله إليك)، وقد فهمت من هذه العبارة أنه كان مشغولاً بدراسات متصلة بالسيرة النبوية، وكذلك عرفت أن الظن قد يبلغ درجة اليقين، وقد يقوم مقام المعاينة عند صدق الإحساس.

فكيف استقبل الدكتور طه هذا التقريظ الطريف؟

مضى يقول: هذا اختراع جديد من اختراعات زكي مبارك في الأسمار والأحاديث، فليس من المعقول أن

أكتب إليه خطاباً أقول فيه (أحمد الله إليك)، وهي ليست من عبارات هذا الجيل!

ولقيني بعد ذلك، فجدد استغرابه من العبارة التي نسبتها إليه؛ فقلت: إنها حق؛ فقال: إنها من المستحيلات!

ومضيت أبحث عن ذلك الخطاب، فلم أهتد إليه، لأن الدنيا كانت أسرفت في اللجاجة واللدَد، فنقلتني من أحوال إلى أحوال، وبعثرَتْ ما كنت أحرص عليه من رسائل الأهل والأصدقاء، وعَدَتْ على مكتبتي بالقلب والإعلال، فلم يبق أمل في الوصول إلى نص الخطاب المنشود.

ثم أخذت أتحدث في مقالاتي ومؤلفاتي عن أشياء وقعت بيني وبين الدكتور طه حسين، فكان إذا سئل عن بعض تلك الأشياء أجاب بأنها اختراع من نوع (أحمد الله إليك)!!

ومنذ أيام مضيت لمقابلة سعادة الأستاذ الجليل الـدكتور السنهوري بـك وفي يـدي نسـخة مهـدأة إليـه مـن كتـاب (الأسمار والأحاديث) فوجدت الدكتور طـه بـك هنـاك، وسـألني السـنهوري بـك عــن بعـض أغـراض الكتـاب، فقلــت: فيـه أقـوال فـاه بهـا الـدكتور طـه ولم ينشـرها، فنشرتها بالنيابة عنه على نحو ما كـان يصـنع أفلاطـون مـع سقراط!

واللطف الملحوظ في هذه العبارة لم يمنع الدكتور طه من أن يقول: لا بد أن تكون اختراعات مـن طـراز (أحمـد الله إليك)

وسألني السنهوري بك عن القصة فأجملتهـا في كلمـات قصار فراراً من الدخول في جدل جديـد مـع الـدكتور طـه حسـين، فقـال وهـو يبتسـم: يجـب أن يكـون الخطـاب صحيحاً ما دمت تحدثت عنه في البلاغ!

فقلت: وإن وجدت أصل الخطاب؟

فقال الدكتور طه : إن وجدته فسيكون بخطك؟

فقلت : وإن كان بخط (توفيق)؟

فقال : هذا مستحيل!

فقلت : وهل عندك مانع من أي تحمد الله إليّ؟

فقال : أنا أحمد الله في كل وقت، ولكني لا أذكر أني حمدته إليك!

ثم انصرفت وقد اطمأن مَن حضروا هذا الحوار إلى أني أتزّيد على الناس حين أشاء.

أين ذلك الخطاب؟ وأين أنا من سنة ١٩٢٨ وقد شرَّقتُ وغربت، وانتقلت من دار إلى دار، وبعثرت أوراقي مئات المرات؟

أما تسمح المقادير بأن أصل إلى ذلك الخطاب ليعرف الدكتور طه حسين أني لم أتزيد عليه؟

إلى يا أوراقي، إليَّ، إلَّ، فقد طالَ عهدكِ بالحجاب، واشتقتُ إليك أشد الاشتياق!

ورجعــت إلى تلــك الأوراق، الأوراق الــتي ســبقت هجرتي إلى بغداد، رجعت إليها في حذر وخـوف، لأنهـا تذكرني بعهود سيطول عليها بكـائي إن فكـرت في أيامهـا الطيبات.

فماذا رأيت؟

رأيت ألوفاً من أطياف الشباب، الشباب الذي أبليته في الدرس بلا ترفق ولا استبقاء.

ورأيت قصائد منسية كنت نظمتها أيام كنت أومن بـأن الدنيا أهل لأن يعيش فيها الرجل وهو مُرهَف الحس خفاق الفؤاد.

ورأيت رسائل مهجورة أملتْها قلوبٌ خوافق لا أعـرف مصيرها اليوم، ولا أدري مكانها بين الحياة أو الموت

ورأيت مواعيد وفيتُ منها بما وفيت، وأخلفتُ منها ما أخلفت، يوم كانت الدنيا تسمح بأن أتخيَّر من المواعيد مـا

أشاء. ومن أخصب تخيَّر. فيا زمن الخصب أين أنت؟ وكيف ألقاك؟

ورأيت صوراً غالية كادت تُبليها الأنفاس والمدامع، لطول ما عانت من لوعتي وأساي، قبل أن يروضني الدهر على اصطناع الصبر الجميل:

وإن أكُ عن ليلَى سلوتُ فإنما . تسليتُ عن يأس ولم أسلُ عن صبر

ورأيت خطابات لا تستحق الحفظ، لأن أصحابها ضيعوا العهد، وأخلفوا الميعاد

وقد مزَّقتُ تلك الخطابات شر ممزَّق، ثم رجعت فجمعت أوصالها بترفق وتلطف، لأني تخيلتها جُثثاً هوامد لأرواح قتلها الغدر والجحود، ولا يباح التمثيل بجثث الأموات.

ورأيت رسائل من هند، فعرفت أن بلائي بها قديم العهد، وكنت أحسب هواها أين أمس!

ورأيت ما دلني على أن فلاناً كـان ينـزعج حـين تخلـو حياته من وجهي يوماً أو بعض يوم، وقد صار إلى ما صار إليه، فلا ألقاه إلا بعد استئذان.

فيا فلان، كيف حالك، فلست أنـت الـذي أراه حـين أسـتأذن في الـدخول عليـك، وإنمـا هـو خيالـك، خيـال الصديق العزيز الذي كنت أعهد، وما هو خيالك؟ إنما هو الهيكل الذي أحتل روحك اللطيف بغير حق، فأين أنـت يا صديقي لأقدم إليك تحية الوجد والشـوق؟ أيـن أنـت، فما تخيلتُ فجيعتي فيك إلا طار صوابي؟!

ورأيت عناوين محفوظة لأحباب أوفياء، فـأين أولئـك الأحباب لأكتب لأحـدهم خطابـاً أقـول فيـه: (أحمـد الله إليك)؟

ومن يضمن بقاء تلك العناوين، وخرائطُ الـبلاد تُغَيَّـر من يوم إلى يوم؟ وهل تسمح الـدنيا مـرة ثانيـة بـأن تأخـذ

المواعيد في القطارات لعام أو عامين ثم تفي بتلك المواعيد كما كنا نصنع؟

هي دنيا قد تولتْ . . . فعلى الدنيا السلامْ

إليّ يا أوراقي، إليّ، فقد بقيت مآرب يعزْ عليَّ أن تضيع.

وما هذه الأشياء؟ ما هذه الأشياء؟ وبأي حق حفظتها في أصْوِنة الأوراق؟

هذه كسرات من آنية مصدوعة، فما تاريخ تلك الآنية؟

أسَندتُ رأسي بيديّ وفكرت عساني أذكر ذلك التاريخ.

ثم تذكرت بعد لأي أني كنت ذهبت إلى الهافر لأشهد الاحتفال بعيد (العنصرة) هنالك في سنة ١٩٢٧ ونفدت نقودي فرجعت إلى باريس بدون أن أشتري شيئاً من طرائف ذلك الثغر الجميل.

وسألتني ربة البيت الذي كنت أقيم فيه عن رحلتي إلى القاهرة فذكرتُ أني متوجع لأن النقود خانتني فلم أشتر شيئاً من طرائف تلك المدينة، فنظرت إليَّ ابنتها بطرف غضيض وهي تقول: سأعوِّض عليك ما ضاع منك، ثم أتحفتني بزهرية جميلة كانت اشترتها من هناك.

وانصدعت الزهرية بعد أحايين فجمعت كِسراتها وضممتها إلى ما أحفظ من رسائل ذلك العهد، فهَي اليوم روح من أرواح تلك الذكريات

فما أخبار صاحبة الزهرية؟ وكيف حال طرفها الغضيض؟

أفي الحق أن باريس عانت مخاوف الحرب وإطفاء الأنوار بالليل، ثم انتهتْ بها الخطوب إلى الاشتمال بأثواب الحِدَاد؟

متى نلتقي وفي جيبي كسرات تلك الزهرية التي عاشت بين أوراقي وهي مصونة في مـدة زادت علـى أربعـة عشـر عاماً؟

متـى نلتقـي لتحـدثني وأحـدثها عمـا صـنع الزمـان بأحلامها وأحلامي؟ وهل أعرفها حـين أراهـا أو تعـرفني حين تراني بلا بشير بالتلاقي؟

عندي صورتها وعندها صورتي، ولكن أيـن نحـن ممـا كنا عليه سنة ١٩٢٧ وقد تبدلنا أحـوالاً بـأحوال؟ ومـن ذا الذي لا يتغير، يا ربة الطف الغضيض؟!

أنا بخير وعافية، وإن صـنع الـدهر مـا صـنع، فكيـف أنتِ؟ ومتى تعود ليالينا بمطالع الأقمار في بـاريس؟ ومتـى نعـود سـيرتنا الأولى، سـيرة الأطفـال الـذي يرضَـون ويَغضبون في اللحظة الواحد عشر مرات؟

حدثيني متى أردّ إليك أصداع الزهرية ومعها أصداع قلبي، القلب الذي أخذ عنك درس الثقة بالقلوب، فلم يعرف بعدك غير الأسف على حُسن الثقة بالقلوب؟!

كنت نسيت أني أخذت الدرس عن طفلة، وكذلك يندم من يأخذ الدروس عن الأطفال!

ولكن أين خطاب الدكتور طه حسين؟ وأين عبارة (أحمد الله إليك)؟

إن أسفاري في البحث عن هذا الخطاب ستطول، وقد لا أصل إليه أبداً، وما قيمة التعلق بتاريخ قديم تنكّر له عارفوه؟ وما الفائدة في رَجْع هذا الدكتور إلى حسابٍ تمتْ تصفيته منذ أعوام طوال؟ وهل أقدر على بعث الأموات من الذكريات؟ تلك معجزة صحّت لبعض الأنبياء ولن تعود، فليقل الدكتور طه إني افتريت عليه وليُسرف في اتهامي كيف شاء، فحسبي من الطمأنينة أن أعرف أني كنت من الصادقين

ولكن ما هذه الخريطة؟ ولأي سبب حفظتها في أوراقي؟

هي خريطة لمقبرة بير لاشيز في باريس.

فكيف عرفتُ تلك المقبرة وكيف احتفظتُ بالخريطة فنقلتها من باريس إلى مصر الجديدة بلطف ورفق لأرجع إلى درس معالمها حين أريد؟

كنت في درس المسيو (تونلا) أستاذ الأدب الألماني بالسوربون، وكانت دروس هذا الرجل تستهويني كل الاستهواء، فقد كانت تنقلني إلى آفاق من الفكر لا أصل إلى مثلها في صحبة رجل سواه، وفي دروس هذا الرجل عرفت سيدة ألمانية لم تكن مع زوجها على وفاق، وكانت فيما حدثتني من شواعر برلين، وكانت ملامحها وشمائلها تشهد بأنها على صلة وثيقة بشياطين الشعر الجميل. ويظهر أن الزوجية قيدٌ لا يستريح إليه بعض هذا النوع من الجنس اللطيف.

ولم يكن للشاعرة بُدٌّ من رجل تشكو إليه جهالة زوجها الغبيّ البليد، فهدتها الفراسة إلي أن أذنيّ أصلح الآذان للترحيب باغتياب الأغبياء والبُلَداء، وكذلك أخذتْ تصبّ في أذني شكايات هي أعذب وأخطر من صهباء الرُّضاب.

كنت أعرف أن الغِيبة من الكبائر، وأن السامع شريك القائل في الإثم، ولكني نسيت الأدب مع الشرع، لأن تلك الكبيرة كانت تساق إلى أذني في لغة فرنسية ملحونة، وأنا أعبد اللحن في اللغة الفرنسية إذا صدر عن الألمانيات الملاح، وهل في الدنيا لغة أحلى وأعذب من لغة باريس حين تمضغها ظبية من برلين؟

واتفق في تلك الأيام أني كنت مشغول الفكر والقلب بدرس طوائف من الشعراء العشّاق منهم ألفريد دي ميسَّيه، وقد كُتِب في تاريخ هواه عشراتٌ من المؤلفات الجياد، فحدثتني النفس بأن أحجّ إلى قبر ميسَّيه مع تلك

الألمانية الحسناء، لأذوق حلاوة النجوى في رحاب ذلك (الشهيد)

وكذلك مضينا إلى مقبرة بير لاشيز في صباح يومٍ مَطير لا يَدفع غيومه الثقال غير ما في قلوبنا من صفاء

وأسرع البواب فقدَّم إلينا خريطة المقبرة بثلاثة فرنكات، ولم يكن بدٌّ من الاهتداء بالخريطة، لأن تلك المقبرة فيها ألوف من المقابر، ولن نصل إلى قبر ميسيه بغير دليل.

وماذا تقول الخريطة؟

إنها لا تعيِّن غير أسماء العلماء والشعراء والكتاب والمجاهدين، وهي أسماء معدودات، فأين أسماء المجهولين والمنسيين بتلك المقبرة الفيحاء؟

أولئك أقوامٌ دفنوا همومهم في صدورهم فلم يتحدث عنهم شاعرٌ ولا كاتبٌ ولا خطيب

أولئك أقوام كانوا أحجاراً في بنـاء الوطنيـة الفرنسـية، ولو كانوا من أصغر الطبقات، فكيف نسيهم النـاس فلـم يُحفظ لهم في الخريطة مكان؟

تلك حظوظ من يعملون وهـم صـامتون، وقـد يكـون فيهم من أدى لوطنه خدمة منسية، وقـد يكـون فـيهم مـن حفظ العهد لإخوانه الناسين، وقد يكون فيهم مـن شـرب من رحيق الوجود أكثر مما شرب كبار الشعراء.

وما هي إلا لحظات حتى التفتتْ رفـيقتي فـرأت عـينيّ مغرورقتين بالدمع، ورأتـني لا أطيـق الجـواب مـن فـرط الحزن والذهول.

وصَوّبت الرفيقة بصـرها إلى مـا صـوّبتُ إليـه بصـري فرأتني أحدِّق في لوحة رُقِمت هذه العبارة الصارخة:

فرنسا! تذكري!!

وهي عبارة مسطورة فوق قبر رجل استشهد في الـدفاع عن الألزاس أيام حرب السبعين.

فقالت: وماذا يهمك من هذه العبارة؟

فأجبت: أشتهي أن أوجِّه مثل هذه العبارة إلى وطني

وكنت في صبيحة ذلك اليوم تلقيتُ من مصر خطاباً يشهد بأن وطني لا يحفظ الجميل؟ فما هو ذلك الخطاب؟

هو خطابٌ له تاريخ يضيق عنه هذا الحديث.

وفي طريقنا إلى قبر ميسيه مررنا بقبر حوله أحواض من الأزهار، فأخذتْ رفيقتي تجمع الزهر الذي تساقط على الأرض. ونظرتُ فرأيتُ أحد الحراس يراقبها من بعد، ثم انقض كالصاعقة يسألها عما جَنَتْ يداها، فأجابت: هذه أزهار ذوابل أسقطتها العواصف. فانصرف الحارس وهو مُجلّل بالخجل والكسوف!

ثم وصلنا بعد لأي إلى قبر ميسيه وبجانبه تمثال الشاعر وهو كهلٌ لا تنطق معارف وجهه بأنه كان حُلم الغانيات في باريس.

أما شجرة الصفصاف التي أوصى الشاعر بـأن تُغـرس بجانب قبره فقد رأيتها في صُفرة الموت

ثم قضينا بقية اليـوم في تـدوين مـا كُتـبَ فـوق القبـور لأقارنه وحين تسنح الفرص بما يُكتب فوق المقابر المصرية، وهو مقال لم أكتبه بعد، وقد كان في بالي حين زرت مقابر الكرخ ومقابر بغداد.

والكاتب قد يُجيل فكره في الموضوع الواحد عـدداً مـن السنين.

أين خطاب الدكتور طه؟ أين؟ أين؟

ولكن ما الموجـب للحـرص علـى خطـاب صـديق لم تصحّ لي صداقته غير عشرة أعوام كانت أقصر من عشـرة دقائق؟

وماذا يهمني من أن يعـرف أنـي لم أتحـدث عنـه بغـير الصدق ولم تبق لذكراه في قلبي غير أطلال؟

هذا الصديق يهمني جداً، لأنـه لم يعـرف بعـد فراقـي كيف يكون صدق الإخاء.

هذا الصديق يهمـني جـداً، لأنـني خلقـت منـه عـدواً عظيماً، وأنا أتخيَّر أعدائي كما أتخيَّر أصدقائي. ولكن أين الخطاب؟

هذه أوراق وأوراق وأوراق. هذه مئات مـن الرسـائل التي تشهد بأني كنت على صلات مع أرواح جاذبتُها زمنـاً أطراف المحبة والعتاب.

رباه! متى تعود أيامي؟ متى تعود؟!

ثـم تشـاء الأقـدار أن أجـد الخطـاب المنشـود، وبخـط (توفيق) الذي صار من أيام دكتوراً في الحقوق من الجامعـة المصرية.

تشاء الأقدار أن أجد الخطاب الذي يقول:

(أحمد الله إليك على ما أنت فيـه مـن رضـاً بالإقامـة في باريس، وأتمنَّى لك المزيد من هذا الرضـا، كمـا أتمنـى أن

تنتفع بأيامك فر فرنسا إلى أبعد حدّ ممكن، وتقبَّل من السيدة ومني تحية خالصاً وشكراً جميلاً)

وتاريخ الخطاب ٢٦ يوليه سنة ١٩٢٨

وقد ابتسمتُ حين وجدت (تحية خالصاً) فهي غلطٌ من (توفيق) لا من الدكتور، إلا أن يكون لها وجه ضعيف!

ثم ماذا؟

ثم تشاء الأقدار أن أجد خطاباً للدكتور طه كتبه إليّ من الإسكندرية، وفيه يقول:

(صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك

أنا مَدين لكٌ بشُكر كثير: فقد قرأت كتابيك وتسلمتُ السَّفرين اللذين تفضَّلت بإرسالهما إليّ. ولست أدري كيف أشكر لك عنايتك بفلسفة ابن خلدون، وأنا مقتنعٌ فيما بيني وبين نفسي بأنها لا تستحق هذه الغاية. ومع ذلك فسأشتري (المقطم) منذ اليوم لأقرأ ما تكتُب لأنك أنت الذي سيكتبه لا لأني أنا موضوعه. وكل ما أرجوه

لك أن تصدر فيما تكتبه عن الحرية الصادقة القاسية، لا عن الإخاء والمودة اللذين يدفعان في كثير من الأحيان إلى شيء من الرفق لا يخلو من إثم. وأنا أعيذ أصدقائي من أن يتورطوا من أجلي في إثم الإسراف في البِرِّ، كما أكره أن يتورطوا في إثم العقوق. وقد كنت أحبَ أن يقف كتابي عند هذا الحد، ولكن الله يأبى إلا أن يضاعف دَيْني لك حتى يتجاوز قدرتي على الأداء، فأنا أريد أن تتكلف السعي إلى إدارة السياسة حيث تلقي صديقنا المرصفي وتطلب منه أصول الجزء الثاني من حديث الأربعاء فقد كلفته أن يجمعها لك، وأشكرك إن دفعتها إلى مصطفى أفندي محمد ليبدأ في طبعها. وأنا أرجو أن تكون بخير مطمئن النفس، وأن تكتب إلى في شيء من الإطالة والحرية، فإن كتبك وأحاديثك تقع في نفسي دائماً موقعاً حسناً. وليس لدي الآن ما يشغلني عن قراءة كتبك. فأنا أقضي من بقي من أيام الراحة في قراءة متفرقة لا نظام لها

ولا نفع فيها، وأرجو أن أراك بخير حين أعـود إلى القـاهرة في الأسبوع الأول من الشهر المقبـل، إن شـاء الله، وتقبـل تحيتي الخالصة)

طه حسين

وتاريخ هذا الخطاب (٢ أغسطس سنة ١٩٢٥)

وفيه غلطة نحوية وقعت من (توفيق) لأنـه أسـاء النقـل عن الدكتور، كما كان يتفق له في بعض الأحيان.

فإن قيل: وكيف أمكن بعد ذلك الوداد الوثيق أن تَفسُد العلائق بيني وبين الدكتور طه حسين، فإني أجيب بـأن لله حكمه فيما وقع بيني وبين هذا الصديق.

لم يكن لي بدٌّ من خصـومة أتخـذ منهـا فرصـة لتوجيـه الجمهور إلى الحقائق الأدبية، وكذلك خاصمتُ عدداً مـن رجال الأدب، كان أظهرهم الدكتور طه حسين

وأنا اليوم في حياد، أو غير محارب، وهما حالتان متقاربتان، فمتى أخلق خصومات جديدة أذكي بها نار الأدب من جديد؟

أنا حاضرٌ للخصومة، على شرط أن أجد خصماً في مثل مواهب الدكتور طه حسين، فما أرضى بمنازلة الشادين في الأدب من الذين لم يأخذوا زادهم الأدبي إلا من قراءة الهوامش بالجرائد والمجلات.

يا دكتور طه

إن كنت أنكرت أن تحمد الله إليّ فخطابك تحت يدي أقدمه إليك حين تشاء، فإن لم تحمد الله إليَّ فأنا أحمد إليك!

وإن أذن الله بانقشاع ظلمات الحرب فستراني حيث تحب أو حيث تكره بأبحاث طوال عراض تعود على الأدب بأجزل النفع، وتملأ مسامع الزمان

والله يحفظك للخصم الذي يتمنى لك دوام العافية والتوفيق.

زكي مبارك

الدكتور طه حسين يتحدث عن:
الحب الضَائع

حين تلطّف صاحب العزة الدكتور طه بك حسين فأهدى إليّ نسخة من (دعاة الكروان) لم يفته أن يقول إنه سيعدي إليّ بعد أسابيع نسخة من (الحب الضائع)

وقد التفت ذهني إلى مدلول هذا القول، فمن عادة الدكتور طه أن يتظاهر بالتواضع، وأن يعلن أنه لا يعني ما يقول، وأن الناس لا يقبلون على مؤلفاته إلا متفضلين، فكيف حرص هذه المرة على التبشير بكتابه الجديد؟

وزرته بعد ذلك في مكتبة بوزارة المعارف لشأن من الشؤون التعليمية فأدركت من سياق كلامه أنه سيرسل إليّ كتابه الجديد يوم الخميس، فما هذا الكتاب الذي يحدثني عنه الدكتور طه مرتين قبل أن يظهر في أسواق الورّاقين؟

ثم جدّت شواغل صرفته وصرفتني عن التلافي نحو أسبوعين، فلم يُهد إليّ كتاب (الحب الضائع) إلا يوم أهديت إليه كتاب (ملامح المجتمع العراقي)، والجروحُ قِصاص!

كان من همي أن أعرف ماهيّة الكتاب الذي بشرني به الدكتور طه مرتين قبل أن يظهر في الأسواق، فكانت النتيجة أن أقرأ منه خمسين صفحة في الطريق، وأن أستأنف قراءته في العصرية لأفرغ منه قبل أن ينتصف الليل

فما جزاء المؤلف الذي يفرض علينا أن نقرأ نحو ٢٢٤ صفحة في يوم واحد؟

جزاؤه أن نسوق له الحمد والثناء بغير حساب، فما تسمح الظروف بأن نجد في كل يوم كتاباً يجذبنا إليه بهذا السحر الغريب.

وما (الحب الضائع)؟

هو كتابٌ يصوّر العواطف الطبيعية في الريف الفرنسي لعهد الحرب الماضية. والكتاب ليس بجديد، لا في الروح ولا في الأسلوب، فله أمثال تعدّ بالعشرات أو بالمئات، ومع هذا فلن يقول الفرنسيون حين يُترجَم إلى لغتهم (هذه بضاعتنا رُدّت إلينا) لأن طه حسين حين يقتبس لا يفوته أن يضفي ثوب الابتكار على الاقتباس.

والمهمّ هو تنبيه القراء إلى قيمة هذا الكتاب، فمن المؤكد أن فيهم من تغيب عنه مراميه على وجهها الصحيح، وقد يكون فيهم من يتصور أنه كتابٌ في الحب، والحبُّ عند الغافلين عبثٌ ومزاح!

هو كتابٌ في الحب، على نحو ما يتصور أديبنا العظيم طه حسين، والحبُّ عند من يكون في مثل حالته العقلية آصرةٌ معقّدة إلى أبعد الحدود، فهي تمسّ الآباء والأمهات قبل أن تمسّ البنين والبنات، وهي تقلقل المجتمع قلقة لا

يعرف مداها غير المشغوفين بدراية أهواء العقول وأحلام القلوب .

والمؤلف يُجري الحديث على لسان فتاة تؤرّخ حياتها من مساء إلى مساء، بعبارات فطرية قليلة التنميق والتهويل، وهو في أثناء ذلك يُنطق الفتاة بأقوال تفصّل من العُقد النفسية أشياء وأشياء .

والمتأمل يرى في الكتاب دقائق يمسها المؤلف برفق، لأنه لا يريد أن يجعل فتاته كثيرة الاستقصاء، وإن زعمت لنفسها نية الاستقصاء، وهذه إحدى النواحي الطريفة في هذا الكتاب الطريف .

فالآنسة مادلين لم تلتفت إلى دفتر اليوميات إلا بعد عصرية قضتها مع صواحب ألِفن كتابة اليوميات، ومن هذا نعرف أن المؤلف يريد النص على أن النساء ينقلن عن النساء أكثر مما ينقلن عن الرجال

ثم نمضي مع صاحبة اليوميات فنعرف أنها تعيش بين أهل جعلت فواجعُ الحرب أيامهم بؤساً في بؤس، ومع هذا يحتال المؤلف فينطق الفتاة بكلمات نعرف منها أن للشباب أحلاماً تُنسي أصحابها فواجع الحرب، فقد رأينا مادلين تداعب خيال العيش المقبل من وقت إلى وقت، برغم ما يعاني أهلِها من متاعب وكروب.

وكلام المؤلف في تصوير عواطف الأبوّة والأمومة عند الفرنسيين غاية في الصدق، وهو يسوق كلامه على قلم الفتاة بأسلوب حزين، يلائم الحياة في ذلك البيت الحزين.

والواقع أن (عاطفة السَّكن) قوية عند الدكتور طه إلى أبعد الحدود. والسكن هو الكلمة العربية التي تماثل الـ في اللغة الفرنسية، فهو حين يدور حول هذا المعنى يفصِّله أجمل تفصيل، وبلا تكلف ولا افتعال.

ولم يكن يدٌّ من الحديث عن الوطنية الفرنسية لعهد الحرب الماضية، فهل ينشئ المؤلف خطبة على لسان تلك الفتاة؟

يكفي أن يشير إلى أن تلك الأسرة ظهرت فيها ظاهرة من جنون، وهي تطوُّع الأخ الأصغر للخدمة العسكرية قبل أن يبلغ سن الحرب، فقد كان يقول:

(صُرِع أحد أخويَّ وجُرِح الآخر، وما ينبغي أن تخلو ميادين الحرب من أحدنا). وهي عبارة في غاية من القوة، وقد ساقها المؤلف في بساطة توهم أنه لا يعني ما تنطوي عليه من مقاصد وأغراض.

وهنالك نظرية أخلاقية تعرض لها المؤلف في عدة مواقف، وهي النظرية الخاصة بمواجهة الحياة، ومن رأى المؤلف أنه لابدَّ للأحياء من أن يعيشوا، وأن اجترار الأحزان مرض يجب دفعه بلا إمهال

ولا يفوت المؤلف أن ينص على ما يقع من المضارّة بين الأخ والأخت، ولا يفوته أن يجسِّم النفاق الذي يقع في البيوت عند تبادل الاستغفال بين الجيل القديم والجيل الجديد.

وأقول مرة ثانية إني أريد تنبيه القراء إلى قيمة هذا الكتاب لأنه كُتِب بطريقة يغلب عليها الرمز والإيماء، وإن كان غاية في الصراحة والوضوح، عند من يساير المؤلف في أشواطه الطوال.

وهل فيمن قرءوا هذا الكتاب من تنبَّه إلى نظرية دقيقة ساقها المؤلف في أسطر معدودات بالصفحة الثامنة والستين؟

في تلك الأسطر يشير المؤلف إلى أن الحيوان المتوحش يحتلّ صدر الإنسان المتحضر، ولم يفته إلا النص على أن الحضارة سلاح جديد يزيد التوحش ضراوة إلى ضراوة واستذآباً إلى استذآب

وهنالك صفحة عجيبة غريبة تـذكِّر بـأدب أبـي حيّـان التوحيدي في تشريح العواطـف، وهـي الصـفحة الخاصـة بالشوائب التي تفسد الوداد، ومن تلـك الصـفحة تعـرف كيف جاز أن يتعـرض الـدكتور طـه لتقلبـات في المـودَّات والصداقات يستفظعها منْ لا يعرف ما فُطِر عليه من توهج الإحساس.

تلك الصفحة تفسر ما يقع فيه الدكتور طه من وقت إلى وقت، فهو يقطع ما بينه وبـين أصـدقاء لا يجـود بأمثـالهم الزمان، وهو قد يصل أقوامـاً لا يمتّـون إلى روحـه بسـبب قريـب أو بعيـد، ولعلـه أكثـر النـاس ابـتلاءً بالمخـادعين والمرائين، لأنهم أحرص على مراعاة الظواهر من المصافين والموافين، والكـاذب يسـبق الصـادق إلى امـتلاك القلـوب الخواضع لخوادع الوداد.

وتلك الصفحة غاية في القوة مـن الوجهـة الأخلاقيـة، فالجهل يصدنا عن مراعاة الواجب في معاملـة الأصـدقاء،

فنتوهمهم يقبلون منا كل شيء، ويغفرون لنا جميع الذنوب، ولو عقلنا لأدركنا أن الصديق ينتظر أن يسمع منا ما يحب في كل وقت، ويرجو أن نرى سيئاته أشرف من الحسنات، وأن نعدَّه أعظم مخلوق جادت به على الأرض السماء.

ومن يُسمع الصديق كلمة اللطف إذا بخلنا بها عليه؟

وما حاجة الصديق إلينا إذا صارحناه بعيوبه كما نصارح الأعداء؟

آفة الصداقة أن نعاملها كما نعامل العداوة، باسم الحرص على الشجاعة الأدبية، مع أن للصداقة حقوقاً أيسرها التغاضي عن هفوات الصديق.

ونحن في الغالب نلاطف الأعداء ليصيروا أصدقاء، ونتناسى حقوق الأصدقاء، لأن ودهم مضمون، ثم تكون النتيجة أن يعدّنا الأعداء من أهل الرياء، وأن يعدنا الأصدقاء من أهل العقوق

والدكتور طه لا يلتفت إلى ما يفسد الصداقة عن عمد وإصرار، لأنه أوضح من أن يحتاج إلى التفات، وإنما يلتفت إلى الشوائب التي تصدر عن نبرات الصوت، وحركات الجسم، ولحظات الطرف، وهي (أشياء يسيرة تحسُّ وتُلحظ، ولكنها لا تكاد تثبُت للتصوير والتعبير. هي أيسر من ذلك وأدق. هي تنفذ من أعماق النفوس إلى أعماق النفوس، لا تكاد تمر على الألسنة، ولا تكاد تستقر في العقول، ولا في مظاهر الحس والشعور، وهي من أجل ذلك مؤذية مهلكة شديدة الخطر على الحب والود، وعلى ما بين الناس من صلات، هي أشبه بهذه الجراثيم التي كانت تفتك بحياة الناس وتذيع فيهم ألوان الوباء والموت دون أن يحس لها الناس وجوداً، أو يستطيعوا منها احتياطاً. ولكن العلم قد كشف هذه الجراثيم، وأخذ يعلّم الناس كيف يعرفونها وكيف يدرسونها وكيف يتقونها. . فمتى يستكشف العلم هذه الجراثيم المعنوية التي تفسد

الود وتفتك بالحب وتقطع أمتن ما يكون بين الناس من صلات؟)

وهذا كلامٌ نفيس جداً، وهو غرة هذا الكتاب النفيس

ثم تكون المشكلة الأساسية، وهي زعزعة الحب في قلوب الأزواج، وفي هذه المشكلة يتحدث الدكتور على لسان مادلين حديث الخبير بدقائق هذه الشئون، فيرينا أن عاطفة الحب تحتاج إلى رعاية موصولة، وأن المرأة قد تفقد قلب زوجها حين تُشغل عنه بشاغل شريف مثل تربيب الأبناء.

وأقول: إن لهذه المشكلة جوانب مختلفة، فالذرية قد تقوّي الحب بين الزوجين، وربما جاز القول بأنها تخلِّد ذلك الحب، ولكن على شرط أن يَسلم الزوج من الفتن الخارجية، وهي فتن لم ينج منها زوج مادلين.

والحق كل الحق أن المرأة لا تُشغل عن زوجها بشيء، وهي لا تحب أطفالها إلا لأنهم مظهر الصلة بالزوج، فإذا

استطاعوا أن يصدوها عنه بسببٍ قريب أو بعيد، فهم لها أعداء.

أما بعد، فلقصة (الحب الضائع) ذيول يضيق عنها هذا الحديث، وسيلّم بها القارئ في أناة وهدوء، فيدرك مقاصدها الصحاح، ومن المؤكد أنه سيعترف بقيمة هذه القصة من الناحية الأساسية، وهي تجسيم العُقد النفسية، وقد تكون هذه القصة فاتحة لفن جديد في أدب الدكتور طه حسين.

فإن لم يكن بدٌّ من توجيه بعض المؤاخذات إلى المؤلف، فأنا أوجه إليه مؤاخذتين اثنتين: الأولى لفظية والثانية معنوية:

أما المؤاخذة الأولى، فأمرها هيّن، وهي الخطأ في بعض الأفعال، والتكلف في بعض التعابير؛ فهو قد استعمل الفعل (آويت إلى . . .) مرات كثيرة بهذه الصورة، وذلك يشهد بأنه ليس غلطة مطبعية، وإنما هو خطأ وقع

فيه المؤلف؛ والصواب (أويت)، لأنه مجرد لا مزيد. . . وهو قد أكثر من عبارة (هاأنا هذه)، وهي عبارة ثقيلة لا تستحق غير الموت.

أما المؤاخذة الثانية، فهي خطيرة، ولكن كيف؟

قصة (الحب الضائع) تسير في الطريق الذي يسميه الفرنسيون فهي قصة تشرح نظرية أو نظريات، والمؤلف نفسه حدثنا أن راوية الحديث ديكارتية العقل، فهل كان الأمر كذلك؟

الدكتور طه هو المنشئ الأول، فهو المسئول عن خطأ مادلين في التشريح والتعليل، ومادلين تنظر إلى المشكلات من جانب واحد، مع أن لكل مشكلة جوانب قد يجيب بأنه يسوق الحديث على لسان امرأة، والمرأة ترتكز عواطفها في ناحية واحدة، فلا ترى ما عداها من النواحي، ولو بلغت الغاية في التدقيق والاستقصاء.

إن أجاب بهذا فسنقول : إنه أضاع فرصة النص على أن مادلين ضلّت سواء السبيل وهي تشرح ما تعرّضت له القصة من علل وأسباب، وكان هذا النص سهلاً على المؤلف لو التفت إليه، فهل يلتفت حين ينشئ قصة ثانية على هذا النحو من الإنشاء؟

بقيت ملاحظة أخيرة، وهي ملاحظة أراها على جانب من الأهمية، وإن تمثلت في صورة جنسية، ولا حياء في الأدب ولا في الدين :

في (دعاء الكروان) جرى الحديث على لسان امرأة، وفي (الحب الضائع) جرى الحديث على لسان امرأة، فما هذا البِدع في حياة رجل من أكابر الرجال؟

وهل يمضي الدكتور طه في إيثار هذا الوضع المقلوب؟

الرأي عندي أن يسير على السُّنة الطبيعية، فيشرح في أقاصيصه أهواء الرجال، ومتاعب الرجال، وأن يترك أهواء النساء ومتاعب النساء لإحدى بنات حواء

ثم أما بعد، فقد شغلت نفسي بالدكتور طه وكتابه سهرتين كاملتين، فمن حقي عليه أن يراعى ما نبهته إليه، وله مني خالص التحية وصادق الثناء.